

دكتور محمد عبد الغنى الأشقر

اللحمة المصرية

عصر المماليك الجراكسة ورد الإعتبار فى عهد برسباى

(٧٦٧ ـ ٨٢٩ هـ ـ ١٣٦٥ ـ ١٤٢٦ م)



الناشر: مكتبة مدبولى ـ القاهرة



هذه السلسلة تضم :

١ـ فتح العرب لمصر
٢ـ تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى
٣ـ الجيش المصرى البرى والبحرى فى عهد محمد على
٤ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى
٥ ـ تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ ـ تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ ـ ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ ـ تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ ـ تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل باشا (مجلد ثانى)
١٠ ـ فتوح مصر وأخبارها
١١ـ تاريخ مصر الحديث مع فزلكة فى تاريخ مصر القديم
١٢ـ قوانين الدواوين
١٣ـ تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث
١٤ـ الحكم المصرى فى الشام
١٥ـ تاريخ الخديوى محمد باشا توفيق
١٦ـ آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ـ مذكراتى
١٨ـ الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ـ وادى النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ـ الجمعية الأثرية المصرية فى صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ـ الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ـ السلطان قلاوون (تاريخه ـ أحوال مصر فى عهده ـ منشآته المعمارية)
٢٣ـ صفوة العصر
٢٤ـ المماليك فى مصر
٢٥ـ تاريخ دولة المماليك فى مصر
٢٦ـ سلاطين بنى عثمان
٢٧ـ محمود فهمى النقراشى
٢٨ـ دور القصر فى الحياة السياسية
٢٩ـ مذكرات اللورد كيللرن
٣٠ـ عادات المصريين
٣١ـ خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢ـ خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣ـ تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ـ تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ـ دور القبائل العربية فى صعيد مصر
٣٦ـ علاقات الفاطميين فى مصر بدول المغرب
٣٧ـ عبد الرحمن الجبرتى ٥ أجزاء
٣٨ـ مصر فى العصر العثمانى فى القرن ١٦
٣٩ـ خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة فى ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠ـ صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١ـ صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢ ـ سلار الأمير التترى المسلم
٤٣ ـ مالية مصر
٤٤ ـ الموسيقا الشرقية
٤٥ ـ الدليل فى موارد أعالى النيل
٤٦ ـ الموسيقى الشرقى
٤٧ـ النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢ـ٢٠٠٠
٤٨ ـ الكافى فى تاريخ مصر ـ ٤ أجزاء
٤٩ ـ الملحمة المصرية فى عهد المماليك الجراكسة ورد الاعتبار
٥٠ ـ تاريخ مصر الإسلامية فى زمن سلاطين بنى أيوب
٥١ ـ مشرفة بين الذرة والذروة
٥٢ ـ قادة الشرطة فى السياسة المصرية دراسة تاريخية وموسوعة شخصيات

MADBOULI BOOKSHOP — مكتبة مدبولى
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١



الملحمة المصرية

عصر المماليك الچراكسة

ورد الاعتبار فى عهد برسباى



مكتبة مدبولى

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ ـ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
الكتاب : الملحمة المصرية وعصر المماليك الجراكسة
ورد الأعتبار فى عهد برسباى
الكاتب : د. محمد عبد الغنى الأشقر
رقم الإيداع : ١٤٥٢١ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى : 2 - 344 - 208 - 977

الطبعة الأولى : ٢٠٠٢
سلسلة صفحات من تاريخ مصر ـ رقم ٤٩

عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧& ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣ ـ فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

٤٩

صفحات من تاريخ مصر

الملحمة المصرية

عصر المماليك الچراكسة
ورد الاعتبار فى عهد برسباى
(٧٦٧-٨٢٩هـ - ١٣٦٥-١٤٢٦م)

تأليف

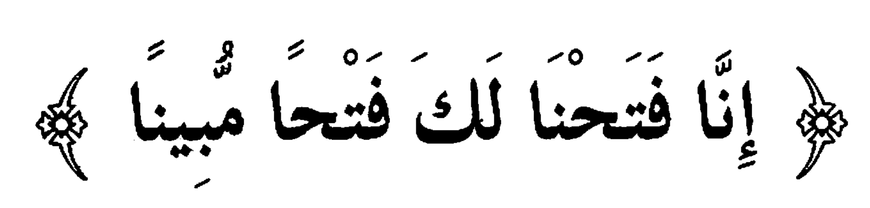
دكتور محمد عبد الغنى الأشقر



مكتبة مدبولى

٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم



صدق الله العظيم

(قرآن كريم)

(سورة الفتح - آية «١»)




مكتبة
لسان العرب

الله أكبر يا لدين محمد...

يا ثأر ثغر إسكندر

(صيحة المصريين فى قبرص)

ابن شاهين الظاهرى



المحتويات

الموضــــــــوع | الصفحة

الفصل الرابع :

■●■●■

إهداء ...

إلى من علمنى كيف يكون العطاء .

إلى أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور

أحمد عبد الرازق أحمد

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية ،

ووكيل الدراسات العليا والبحوث ،

بكلية الآداب ، جامعة عين شمس .

تقديم ...

شهدت دولة المماليك فى مصر والشام فترة عصيبة من تاريخها وذلك بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م ، والذى كان على حد تعبير المقريزى « لا يرتشى ويمقت من يرتشى ويعاقبه أشد العقوبة »[١] ، فهدأت الأحوال فى عهده ، مما ساعد على استقرار أمور الحكم لمدة اثنين وثلاثين سنة وهى أطول حكم لسلطان فى دولة المماليك .

فبعد وفاة السلطان الناصر محمد ، اضطربت أحوال البلاد السياسية والاقتصادية ، وذلك بسبب النزاع على السلطة وازدياد نفوذ الأمراء ، مما دفع بأعداء الدولة إلى التربص بها والنيل منها ، فانتهز بطرس الأول ملك قبرص هذه الفرصة وقام بالهجوم على مدينة الإسكندرية مركز التجارة العالمية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م[٢]، فكان هجوم القبارصة على الإسكندرية فى ظروف غير مواتية للمصريين ، مما تعذر عليهم التصدى للقبارصة الذين استولوا على الإسكندرية ، ثم ما لبثوا أن تركوها بعد أن نهبوها وخربوا كل ما فيها وعادوا إلى بلادهم ، سالمين غانمين .

وظلت غزوة الإسكندرية وصمة عار على جبين المصريين بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة ، وقد تعذر على المصريين الثأر لأنفسهم ورد اعتبارهم حوالى اثنين وستين عاماً ، وذلك بسبب أن حالة مصر بعد غزوة القبارصة كانت امتداداً لما هى عليه قبل تلك الغزوة ، فقد كثرت الأوبئة والفتن والمؤامرات . علاوة على هجوم التتار على بلاد الشام وتعدى الفرنج على سواحل مصر والشام .

وقد اجتازت مصر هذه الفترة العصيبة من تاريخها فى عهد السلطان الأشرف برسباى ، الذى تولى الحكم فى سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١م ، فقد امتازت فترة حكمه

بالاستقرار وقلة الاضطرابات ، وذلك على الرغم مما قاساه الناس فى عهده بسبب سياسته الاحتكارية ، هكذا تهيأت لبرسباى الفرصة للأخذ بالثأر ورد الاعتبار لمصر بفتح قبرص فى سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م وأسر ملكها جانوس الذى أصبح نائباً عن السلطان برسباى فى قبرص ، وذلك بعد أن عفا عنه برسباى مقابل دفع الفدية المتفق عليها والتعهد بدفع الجزية السنوية للسلطان برسباى[٣] .

وهكذا أخذ المصريون ثأرهم من قبرص كاملاً ، مما حل بهم من قبل على يد بطرس الأول ملك قبرص فى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م[٤] ، ولقد وصف بعض المؤرخين هذا العمل بأنه نوع من أعمال الجهاد والفتح .

دكتور / محمد عبد الغنى محمد الأشقر

■ ● ■ ● ■

تمهيد ...

ترجع أهمية دراسة موضوع الملحمة المصرية فى قبرص ورد الاعتبار فى عهد برسباى عصر سلاطين المماليك الجراكسة إلى ما له من أهمية بالغة فى التاريخ السياسى والاقتصادى لمصر الإسلامية .

والباحث فى هذا الموضوع سوف يلاحظ إنه رغم أهميته إلا أنه لم يحظ إلا باهتمام بعض الباحثين ، فقد كتب عنه ، سعيد عاشور فى كتابه : « قبرص والحروب الصليبية »(٥) ، كما كتب عنه ، أحمد دراج فى كتابه : « مصر تحت حكم برسباى »(٦) وتناوله أيضًا السيد عبد العزيز سالم ، فى كتابه : « تاريخ الإسكندرية وحضارتها »(٧) وأشار إليه حسن حبشى ، تحت عنوان : « هجوم القبارصة على الإسكندرية »(٨) يضاف إليهم ما كتبته ، سهير محمد إبراهيم ، تحت عنوان : « حملة بطرس الأول على الإسكندرية »(٩) . كذلك ما كتبه المؤرخ القبرصى ، مكاريوس فى كتابه : « مقتطفات عن قبرص »(١٠) إلا أن جميعهم لم يتعرضوا إلى حالة مصر فى تلك الفترة والتى كانت الدافع وراء هجوم القبارصة على الإسكندرية، كما أنهم لم يتعرضوا للأسباب التى أجلت رد الفعل المصرى للأخذ بالثأر ، وهذا يعنى أن الموضوع مازال فى حاجة إلى دراسة متعمقة لإبراز الوحدة العضوية للموضوع ، وسرد مقدمات وأسباب ونتائج هذه الغزوة ، من هنا كان اختيارنا لدراسة هذا الموضوع الذى يعد بحق صورة مشرفة لتاريخ مصر عصر سلاطين المماليك الجراكسة وملحمة من ملاحم البطولة المصرية على مر التاريخ ، لتكون عونًا صادقًا لقدرة المصريين ، على رد اعتبارهم وإثبات وجودهم فى كل زمان ومكان ، وإن كان فى دراسة التاريخ عظة للأجيال عبر التاريخ ، فإنى أرى فى ملحمة العاشر من

رمضان سنة ١٣٩٣هـ / السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ، والثأر لما حدث من هزيمة فى ربيع الأول ١٣٨٧هـ / يونيـو ١٩٦٧م أصـدق برهان على قـدرة المصـريين على رد اعتبارهم وإن اختلف الزمان والمكان ، فقد كان نصر العاشر من رمضان / السادس من أكتوبر، هو الدافع الوحيد وراء إخراج هذا البحث بهذه الصورة ، فقد أصبح العاشر من رمضان / السادس من أكتوبر ، هو الترياق الشافى والمصل الواقى لنستعيد به ذكرى البطولات المصرية عبر التاريخ ، لتعلم كل البشرية بأن المصريين ، كانت لهم بطولات لا تقل عن رمضان / أكتوبر جسارة ، فما حدث اليوم ، كان له نظيره بالأمس فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى .

وقد قسمت البحث إلى أربعـة فصول ، تناولت فى الفصل الأول منها موضوع « حالة مصر منذ وفاة السلطان الناصر محمد حتى غزوة القبارصة » ، من خلال التعرض لاضطراب أحوال البلاد وانتشار المجاعات والأوبئة ، وتناولت فى الفصل الثانى موضوع « غزوة القبارصة للإسكندرية » ، من خلال التعرض للإسكندرية مركز التجارة العالمية ، وصعوبة التصدى للقبارصة ، ثم تحويل الإسكندرية من الولاية إلى النيابة ، وفى الفصل الثالث تعرضت لموضوع « حالة مصر منذ غزوة القبارصة حتى عهد برسباى » ، وضمنته عرضا لانتشار الأوبئة والفتن والمؤامرات ، ثم هجوم التتار على بلاد الشام ، كذلك تعدى القراصنة على سواحل مصر والشام ، أما الفصل الرابع ، فقد أفردته لدراسة « فتح قبرص ورد اعتبار مصر » من خلال الحديث عن سوء العلاقات بين مصر وقبرص واحتكار برسباى لتجارة التوابل ، ثم إصرار برسباى على فتح قبرص ، ثم أنهيت البحث بخاتمة ، استعرضت فيها بعض النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة ، كما ذيل البحث بثبت لأهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية .

وقد استعنت فى إعداد هذه الدراسة بالعديد من المصادر أهمها :

- كتاب الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية ، للنويرى السكندرى ، المتوفى سنة ٧٧٥هـ ، ١٢٧٣م ، وتكمن أهمية هذا المخطوط ، أنه قدم

عـرضـا لواقـعـة الإسكندرية التى كـانت السـبب المباشـر فى تحـويلهـا مـن الولاية إلى النيـابة فى عـهـد السلطان الأشـرف شـعـبـان ، بـعـد غـزوة القـبـارصـة فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، وقد أكد النويرى دون غيـره من المؤرخين أن الهدف الحقيقى لهذه الغزوة كان اقتصاديا ، ولقد ذكـر النويرى ، أن السبب فـى هـزيمة المسلمين يرجع إلى العريان ، فهو يتهكم عليهم قائلا : « إنه لم يكن مع كل منهم سـوى سيفـه الأجرب » ، كذلك ذكـر أن أخبار تلك الغزوة وصلت إلى مـصـر قبل الحـملة بمدة طويلة عن طريق التجـار الذين كـانوا يـترددون على الإسكندرية ، فهـو بذلك يحـمل السلطات المملوكيـة مـسـئوليـة سـقـوط المدينة فى أيدى القـبـارصـة ، يضـاف إلـى ذلك أن النويرى أفـرد صفحـات للكلام عن ضآلة ملك قبرص وضعف مملكته ، مما يثير الـدهشة من نجاح هذا الملك فى غـزو المدينة بهذه السـرعة ، ولقـد عـاصـر النويرى تلك الغزوة ، بل كـان من الذين غـادروهـا فـرارًا بحـيـاته ، فـأثر ذلك عليـه أثرًا بليـغًـا ، ورغم أهـمـيـة هـذا المصـدر ، فـقـد أخطأ النويرى عندمـا ذكـر أن الإسكندرية كـان يحكمـهـا نـائب ، فـالإسكندرية لم تتحـول إلى النيابة إلا عـلى أثر هذه الغـزوة إلا أن ذلك لم يقلل من قيمة هذا المخطوط .

– ومن المصـادر الهـامـة التى ،أفـادت البـحـث كـذلك ، كـتـاب السلوك لمعـرفـة دول الملـوك للمـقـريـزى ، المتـوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م ، والـذى أمـدنـا بالـعـديـد من المعلومـات ، من بينهـا تفـاصيل كـاملة لما خلفـه القبـارصـة من خـزى وعـار وتـدمـيـر ومهـانة، كما ذكر أن الـدولة المـلوكيـة استخفت بالأخبار التى وصـلت إلى مسامعها من أن القبـارصـة عـازمـون على غـزو الإسكندرية ، فـعلـى حـد تعبيـره ، « لم يكـن من الدولة اهـتمام » وهو بذلك يتفـق مع ما رواه النـويرى . كذلك ذكـر المقريزى ، وصـفًـا رائع لإذلال ملك قـبـرص بعـد وقـوعـه فـى الأسـر فى أيدى المصـريين الذين عـادوا به إلى مصـر .

– كـتـاب إغـاثة الأمـة بكشف الغـمـة ، لنفس المؤلف الذى تعـرض للوباء الأسـود ، الذى عم العالم مشرقه ومغربه ، فأصبح نقمة على دولة المماليك على حد تعبيره .

- ويعد كتاب إنباء الغمر بأنباء العمر ، لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م ، من أهم المصادر التى أفادت البحث ، فقد كان ابن حجر معاصرا لأحداث فتح قبرص وشاهد عيان للأحداث وقد اتفقت رواياته مع المؤرخ القبرصى مكاريوس ، مما يؤكد موضوعيته فيما رواه ، فقد أفرد لنا وصفًا دقيقًا لحملة برسباى الثالثة على قبرص ، وموكب إذلال ملك قبرص جانوس ، وذكر لنا شروط الفدية التى أقرها برسباى ، مما جعل مصدره على قدر كبير من الأهمية .

- وكتاب ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، للعينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م ، الذى كان شاهد عيان للأحداث أيضًا ، بل وحضر مجلس تجمع وفود الدول لمشاهدة موكب ملك قبرص وهو ذليل فى الأسر ، وتكمن أهمية هذا المصدر فى أنه كان صورة صادقة لما حدث إبان تلك الفترة .

- وكتاب ، تاريخ بيروت ، لصالح بن يحيى المتوفى سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٥م والذى كان شاهد عيان للأحداث أيضًا ، فقد ألقى الضوء على خطة برسباى التى كانت تتضمن ضرورة تجمع سفن مصر وخروجها لتلتقى بسفن موانى الشام لتخرج دفعة واحدة لتتوجه إلى قبرص ، ورغم أن صالح بن يحيى وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه النويرى السكندرى ، فقد ذكر صالح ابن يحيى أيضًا أن الإسكندرية كان يحكمها نائب ، فالإسكندرية لم تتحول إلى النيابة إلا على أثر هذه الغزوة كما سبق أن ذكرنا، إلا أن ذلك لم يقلل من قيمة هذا المصدر ، ناهيك عن أن صالح بن يحيى نفسه ، كان مقدما على إحدى السفن المتجهة إلى قبرص فى حملة برسباى الثانية .

- وكتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، لابن شاهين الظاهرى ، المتوفى سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م ، الذى تعرض لهجوم القبارصة على الإسكندرية ولتفاصيل كاملة لحملات برسباى على قبرص ، وقد انفرد هذا المؤرخ دون غيره ، بذكر الصيحة التى كان يرددها المصريون فى قبرص ، كما أورد لنا قصائد عديدة للشعراء الذين أشادوا بهذا الفتح ، كذلك أفرد لنا وصفًا عامًا لدار النيابة بالإسكندرية ، لهذا كان هذا المصدر على قدر كبير من الأهمية ، فقد كان صاحبه شاهد عيان للأحداث .

– وكتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى المتوفى ، سنة ٨٧٤هـ / ١٤٩٦م ، الذى يعد من المصادر الهامة للبحث ، فقد كان المؤرخ شاهد عيان للأحداث أيضًا ، وحضر بنفسه موكب أسر ملك قبرص جانوس ، بل جالسه وتحدث معه وشاهد برسباى وهو يبكى من الفرح . فبكى كل الحاضرين فى هذا المجلس .

– كتاب غزوات قبرص ورودس ، للسيوطى المتوفى سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٥م ، الذى جاءت معلوماته مؤكدة للمعلومات التى أوردها لنا المؤرخ ابن حجر ، ويبدو أن السيوطى نقل عنه ، إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة هذا المصدر .

– وكتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م ، الذى كانت فائدته كبيرة ، إذ ألقى الضوء على حملات برسباى على قبرص، كذلك أمدنا ببعض المعلومات عن الأوبئة التى تعرضت لها البلاد ، فتسببت فى اضطراب أحوالها وعدم استقرارها ، إلا أنه وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه كل من النويرى وصالح بن يحيى ، عندما ذكره أن نائب الإسكندرية جمع عددًا من عرب البحيرة والتقوا بالقبارصة ، فانكسر فيها النائب ، إلا أن الواقع أن الأمير جنغرا الذى وصفه ابن إياس بأنه كان نائبًا للإسكندرية ، كان نائبًا لوالى الإسكندرية خليل صلاح الدين بن عرام والذى كان متغيبًا فى الحج وعين جنغرا نائبًا عنه وليس نائبًا عن السلطان الأشرف شعبان ، حيث إن الإسكندرية لم تكن قد تحولت من الولاية إلى النيابة بعد ، كما سبق أن ذكرنا من قبل .

– كما استعنت أيضًا بالعديد من المراجع العربية والأجنبية أهمها :

– كتاب قبرص والحروب الصليبية ، لسعيد عاشور ، الذى تعرض لموضوع فتح قبرص ، وقد استفاد منه البحث ، فيما يتعلق بحملات برسباى على قبرص ، لذا يعد أكثر المراجع أهمية للبحث .

– « نواب الإسكندرية عصر سلاطين المماليك »[١١] ، لأحمد عبد الرازق أحمد، الذى ألقى الضوء على تصحيح الخطأ الذى وقع فيه كل من النويرى وصالح

ابن يحيى ، وابن إياس ، بل ونقل عنهم سعيد عاشور وعبد المنعم ماجد ، عندما ذكروا أن الإسكندرية كان يتولى أمرها نائب إلا أنه كان يتولى أمرها والى وأن النائب الذى كان موجودًا بالإسكندرية كان نائبًا عن الوالى الذى كان متغيبًا فى الحج وليس نائبًا عن السلطان الأشرف شعبان ، ذلك أن الإسكندرية لم تتحول من الولاية إلى النيابة إلا بعد غزوة القبارصة فى المحرم ٦٦٧هـ / أكتوبر ١٣٦٥م ، ويعد الأمير بكتمر صفى الدين أول نائب للإسكندرية ، والذى تولى أمرها فى ربيع الأول سنة ٦٦٧هـ / نوفمبر ١٣٦٥م ، أى بعد غزوة القبارصة بحوالى شهر .

- كتاب تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة[١٢] ، لأحمد عبد الكريم سليمان ، الذى استفاد منه البحث فيما يتعلق بهجوم التتار على بلاد الشام .

- كتاب دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك[١٣] لقاسم عبده قاسم ، الذى ألقى الضوء على انتشار الأوبئة والفتن والمؤامرات لفترة البحث .

- كتاب ، مقتطفات عن قبرص ، للمؤرخ القبرصى ، مكاريوسى ، الذى أشار إلى المعارك الحربية فى البحر والبر بين المسلمين والقبارصة ، وقد حدثنا هذا المؤرخ بموضوعية تامة ، فقد كان شاهد عيان للأحداث وشارك فيها ، وإن رواياته اتفقت تمامًا مع كل من ابن حجر والسيوطى ، مما يؤكد موضوعيته وعدم تحيزه لبنى جنسه من القبارصة ، فهو يعد بحق من أهم الكتب الأجنبية التى استفاد منها البحث .

■●■●■

الفصل الأول

حالة مصر منذ وفاة السلطان الناصر محمد
حتى غزوة القبارصة
(٧٤١-٧٦٧هـ - ١٣٤٠-١٣٦٥م)

بوفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سنة (٧٤١هـ/١٣٤١م) ، دخلت دولة المماليك فى مصر والشام ، مرحلة جديدة من تاريخها ، يمكن تسميتها بعصر أبناء السلطان الناصر وأحفاده ، وأهم ما يلاحظ على هذه المرحلة هو ازدياد نفوذ الأمراء ، نظرًا لأنه تعاقب على الحكم فى منصب السلطنة فى تلك الفترة ، ثمانية من أبنائه واثنين من أحفاده ، ومعظمهم كانوا صغارًا أو أحداثًا ، مما جعلهم ألعوبة فى أيدى كبار الأمراء[١٥] .

وقد حكم أبناء السلطان الناصر محمد وأحفاده ، منذ وفاته وحتى غزوة القبارصة لمدينة الإسكندرية (٧٤١-٧٦٧هـ/١٣٤٠-١٣٦٥م) ، حوالى ستة وعشرين سنة ، وبذلك يكون متوسط حكم الواحد منهم سنتين ونصف تقريبا ، مما يدل على عدم الاستقرار الذى عانته البلاد فى تلك الفترة ، وهذا باستثناء ، حفيده السلطان الأشرف شعبان بن حسين الذى تولى السلطنة فى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م ، والذى تعرضت فى عهده البلاد لغزوة القبارصة فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، فقد استمر حكمه حوالى أربعة عشرة عامًا ، وإن كانت مدة حكمه لا تختلف كثيرا عما سبقه من عدم الاستقرار واضطراب أحوال البلاد[١٦] .

- اضطراب أحوال البلاد :

من هذه الصورة القاتمة التى يرسمها التاريخ لعصر أبناء السلطان الناصر محمد وأحفاده ، يتضح أن البلاد غدت نهبًا لمجموعة من الأمراء المماليك الذين يتلاعبون بالسلاطين الأحداث حسبما يحلو لهم ، أما عامة الناس فى مصر ، فكانوا يقفون غالبًا موقف المتفرج ، يبكون لمقتل السلطان ، ليقيموا الأفراح والزينات للسلطان الجديد ، هكذا عاش عامة أهل مصر والشام من الفلاحين والتجار وغيرهم فى تلك الفترة ، بين تيارات داخلية متضاربة وثورات بين الأمراء متعاقبة(١٧) .

وإذا كان السلطان الناصر محمد ، قد استطاع فى سلطنته الثالثة أن يقبض بيد من حديد على شئون الحكم وأن يقلم أظافر الأمراء ويقف بالمرصاد لمطامعهم ، فإن خلفاء السلطان الناصر محمد من أولاده وأحفاده ، لم تكن لديهم نفس القوة والعزيمة ، فقد رأينا أن معظم من تولى السلطنة منهم ، كما ذكرنا كانوا أحداثًا وأطفالاً ، الأمر الذى جعلهم أداة سهلة فى أيدى كبار الأمراء ، يلهون بهم ، وفقما شاءوا ويعزلونهم بنفس السهولة التى كانوا يولونهم بها(١٨) .

وحسبنا أن نعلم أن بعض هؤلاء الأبناء والأحفاد تولى منصب السلطنة وعمره سنة ، مثل السلطان الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون ، كما أن بعضهم لم يبق فى الحكم إلا شهرين وبضعة أيام مثل السلطان الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد ، ولعل هذه الصورة الموجزة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى ما عانته البلاد بعد وفاة السلطان الناصر محمد فى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م ، من اضطراب وعدم استقرار وفوضى تركت أثرها واضحًا فى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ناهيك عن مدى استغلال الأمراء لصغر سن السلاطين ، وما كان ينتج عن ذلك من منازعات فيما بينهم وبين بعض من ناحية ومن تحكم واستبداد بشئون الدولة من ناحية أخرى(١٩) .

وهكذا نلمس ظاهرة واضحة عن دراستنا لعصر أبناء السلطان الناصر محمد وأحفاده ، وهى أن كل سلطان من أسرة بنى قلاوون ، كانم يقف خلفه أمير أو أكثر ، من كبار أمراء المماليك ، بحيث طغت شخصية أولئك الأمراء على السلاطين وأصبحت أسماء الأمراء ، دون السلاطين ، مدار الأحداث المعاصرة وموضع اهتمام المؤرخين المعاصريين والمحدثين ومن هؤلاء الأمراء الذين لمعوا فى عصر أبناء السلطان الناصر محمد ، هم ، قوصون ، يلبغا ، آق سنقر ، أرغون ، شيخو ، طاز ، صرغتمش . أما فى عهد أحفاده ، فهم ، قشتمر ، يلبغا ، برقوق الذى تولى السلطنة فى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م .

والواقع أن وفاة السلطان الناصر محمد فى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م ، جاءت إيذانًا بانتهاء ، فترة الاستقرار والرخاء فى عصر ذلك السلطان[٢٠] .

ولا يعنينا هنا أن نتحدث عن كل واحد من أبناء السلطان الناصر محمد وأحفاده الذين تولوا الحكم من بعده وحتى غزوة القبارصة للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، وإنما تكفى الإشارة إلى أن البلاد قاست كثيرًا فى تلك الفترة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وما كان ينجم عن ذلك من القلق وعدم الاستقرار فى البلاد ، فقد اتسمت هذه الفترة بالفوضى والاضطراب السياسى ، فالدسائس لا تنقطع بين أمراء المماليك ، وعمليات التولية والعزل قائمة قاعدة بين السلاطين صغار السن الذين يجهلون كل شىء عن السياسة وأمور الحكم ، فكان الأمر بيد الأمراء الأوصياء على هؤلاء السلاطين ، بل كانوا يحركونهم كالدمى ليحققوا أغراضهم وانتقامًا من منافسيهم ، ولم يقتصر الأمر على هذه الفوضى الضاربة فى مصر وحدها ، وإنما كان لذلك أثره فى الأقاليم الأخرى الخاضعة للسيادة المملوكية ، إذ كثرت الحركات الاستقلالية فى الشام ، وصاحب ذلك تمرد أشراف مكة والحجاز ، ولم يعد للسلطنة قدرة على التحكم فى إدارة شئونها[٢١] .

وهذا يعنى أن تلك الفترة تتسم بالآتى :

- صغر سن السلاطين ، لذلك ازداد نفوذ الأمراء وتلاعبوا بأولئك السلاطين .

- زيادة الصراع بين كبار الأمراء وبين طوائف المماليك ، مما أدى إلى انتشار الفوضى فى البلاد وظهور طائفة المماليك الجراكسة على مسرح الأحداث بزعامة الأمير غرولو الجريشى شاد الدواوين الذى استطاع عزل السلطان الأشرف شعبان بن الناصر محمد فى سنة ٧٢٨هـ/١٣٤٦م ، وقد استطاعت هذه الطائفة انتزاع السلطنة من بيت السلطان قلاوون وتأسيس دولة المماليك الجراكسة فى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م على يد السلطان برقوق[٢٢] .

- زيادة الانحلال الخلقى فى تلك الفترة ، حيث كان السلاطين وكبار الأمراء مصدر البلاء ، فاشتهروا بإدمان شرب الخمر ، حتى قيل إن السلطان المنصور صلاح الدين بن محمد (٧٦٢-٧٦٥هـ/١٣٦١-١٣٦٣م) « كان لا يفيق من السكر ساعة، وعنده خدم من المغنيات ونحو عشرة من الجوارى يدقون الطارات عند الصباح والمساء كما أنه كان يفسق فى حريم الناس ويخل بالصلوات »[٢٣] .

وهذا يعنى ببساطة أن حالة مصر فى تلك الفترة ، كانت ممهدة تمامًا لأن يتربص بها العدو ويتحين الفرصة للنيل منها والظفر بها ، من هنا كان اعتداء بطرس الأول ملك قبرص على الإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، ونهبها وتخريبها دون أن يواجه بأى رد فعل من قبل السلطات المملوكية ، فكان الدرس قاسيًا ، وأدرك المماليك أنهم قاب قوسين أو أدنى من السقوط ، بعد أن فشلوا فى التصدى لتلك الغزوة والتى عرفت « بغزوة القبارصة »[٢٤] .

- انتشار المجاعات والأوبئة :

لم تكن الاضطرابات التى تعرضت لها البلاد فى تلك الفترة نتيجة التنافس بين كبار أمراء المماليك على منصب السلطنة أو بسبب غضب بعض المماليك لقلة النفقة وقلة التوزيع الإقطاعى من قبل السلطان فحسب ، ولكن كانت هناك أسباب أخرى

أدت إلى زيادة هذا الاضطراب أهمها عدم القدرة على التحكم فى مياه الفيضان ، مما ترتب عليه انتشار المجاعات بسبب انخفاض مياه النيل الذى يؤدى بدوره إلى فساد الزراعة وبالتالى قلة المحصول ، وكثيرًا ما كان يصحب ذلك انتشار الأوبئة ، والطواعين ، ووقوع الكوارث كالزلازل ، الأمر الذى أدى إلى القحط والغلاء وموت آلاف من الناس ، مما أفضى إلى قلة الأيدى العاملة ، فتوقفت الحياة تمامًا ، فأدى ذلك إلى شقاء الناس وتعاستهم[٢٥] .

وسنكتفى هنا بالإشارة إلى الوباء الذى عرف (بالوباء الأسود) وعم العالم كله مشرقه ومغربه فى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م ، فلم ينل وباء من الأوبئة اهتمام المؤرخين مثلما نال هذا الوباء ، نظرًا لقسوته وخطورة نتائجه واتساع انتشاره ، فيروى المقريزى : « أنه انتشر فى آسيا وأوروبا وأفريقيا ، فضلاً عن جزر البحر المتوسط ، ويصف كيفية انتشار هذا الوباء ، « بأنه لم يكن كما عهد فى إقليم دون إقليم ، بل عم أقاليم الأرض شرقًا وشمالاً وجنوبًا ، وجميع أجناس بنى آدم وغيرهم حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البحر ، ثم يفسر بعد ذلك كيف أصاب بلاد المغول قائلاً : « وماتت خيولهم وصارت بينهم جيفًا مرمية » ثم كيف أخذ هذا الوباء يزحف شرقًا عن طريق بلاد المغول وغربًا عن طريق القسطنطينية ، حتى وصل إلى الشام ومنها إلى مصر » « فأصبح نقمة على دولة المماليك »[٢٦] .

وكان انتشار هذا الوباء فى سلطنة الناصر حسن الأولى ، فبادر السلطان والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا إلى جهة سرياقوس ، ولا يخفى علينا الآثار الخطيرة التى ترتبت على انتشار ذلك الوباء ، « فصار الناس يموتون بالآلاف ، وزهد أرباب الأموال فى أموالهم وبذلوها للفقراء ، وأقفرت الأرض ، والأسواق خلت من البائعين والمشترين وانحلت إقطاعات كثيرة لوفاة أصحابها ، وتوقفت أحوال القاهرة ومصر ، وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز ، وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس ، وإن الفلاحين بأسرهم ماتوا ، فلم يوجد من يضم الزرع . وإن المواشى هلكت ، ومات صيادوا السمك فى دمياط وهم فى سفنهم ،

والشباك بأيديهم ، وغدت القاهرة خالية مقفرة ، لا يوجد فى شوارعها مار، بحيث يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لكثرة الموتى والاشتغال بهم ، فقد كان يموت بالقاهرة فى اليوم الواحد ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف ، فتعطلت المصانع ، وتعطل الآذان من عدة مواضع(٢٧) . على حد تعبير المقريزى ، فتوقفت جميع ألوان النشاط العمرانى .

أما عن أعراض ذلك الوباء ، فكان يبدأ بظهور خراج صغير خلف الأذن وتحت الإبط ، ولا يلبث بعد ذلك أن يبصق المصاب دمًا ، ثم يموت بعد عدة ساعات ، وهذا ما حدث بالفعل للسلطان برسباى صاحب هذه الملحمة ، الذى أصيب بنفس الوباء فى سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م ، ومات على أثره ، بعد أن حصل له ما يسمى (ماليتوليا) أى ارتباك فى قواه العقلية ، وصار يصدر أوامر غريبة ، مثل نفى الكلاب إلى الجيزة ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات وغيرها ، على حد تعبير المؤرخ ابن إياس(٢٨) .

وفى هذا الوباء ، قال بعض الشعراء :

فهذا يوصى بأولاده ... وهذا يودع إخوانه

وهذا يهيئ أشغاله ... وهذا يجهز أكفانه

وهذا يصالح أعداءه ... وهذا يلاطف جيرانه(٢٩)

وهذا يعنى ، أن انتشار هذا الوباء ساعد على زيادة اضطراب أحوال البلاد التى وقعت فريسة سهلة فى يد القبارصة الذين هاجموا المدينة على غفلة وأهلها آمنين ، حتى أن أهل الإسكندرية ظنوا أن سفن القبارصة القادمة من بعيد ، هى سفن تجارية ، فخاب أملهم وعندما اقتربت هذه السفن وجدوها سفنًا حربية ، أغارت على مدينتهم ، فسقطت بسرعة عجيبة على حد تعبير النويرى(٣٠) .

■●■●■

الفصل الثانى

غزوة القبارصة للإسكندرية

(٧٦٧هـ - ١٣٦٥م)

إن سقوط عكا وسواحل الشام على أيدى المماليك فى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م ، لم يقض تمامًا على الخطر الصليبى فى مصر والشام ، فقد قامت بقايا العناصر الصليبية وعلى الأخص فرسان الاسبتارية فى جزيرة قبرص واتخذوها قاعدة لهم لتنفيذ سياستهم العدوانية ضد المماليك على سواحل مصر والشام ، فكان القراصنة يهاجمون السفن الإسلامية ، ذلك أن الدافع الاقتصادى هو الذى كان يحرك الأحداث سياسيًا أم عسكريًا ، ولهذا نصت المعاهدات التى عقدت بين مصر والدول الأجنبية على مطاردة القراصنة وعدم السماح لهم بالتموين من جزيرة قبرص التى كانت تخرج منها هجمات أولئك القراصنة بقصد شل حركة الموانى المصرية والشامية ، وبهذا ظلت قبرص وكرًا للقراصنة بتكليف من البابوية لتنفيذ إحكام الحصار الاقتصادى على دولة المماليك ، فى مصر والشام[٣١] . لذلك لم تتوقف غارات القراصنة ، وبالتالى لم تتوقف جهود المماليك للتصدى لها .

الإسكندرية مركز التجارة العالمية :

تجمع المصادر التاريخية على أن ثغر الإسكندرية قد حظى بعناية ورعاية سلاطين المماليك الذين قاموا بتزويدها بالقلاع والتحصينات بعد أن فقدت مدينة دمياط أهميتها الحربية والاقتصادية بسبب تهدم أسوارها وردم فم بحرها ، والقضاء عليها كثغر تدخله السفن التجارية[٣٢] ، مما جعل الإسكندرية محط أنظار

العالم وأهم ثغور مصر قاطبة ، بل وأعظم المراكز التجارية فى العالم الإسلامى ، وأصبحت بحق العصمة الثانية لمصر ، ولذلك نافست بغداد فى الزعامة التجارية[٣٣] .

وكان يتولى أمر الإسكندرية فى عصر المماليك البحرية ولاة من أمراء الطبلخانة ، ويروى ابن بطوطة ، أنه كان لها مرسى عظيم ، حيث يقول : « لم أر فى مراسى الدنيا مثله »[٣٤] . ، وكانت بها قناصل للأجانب ويرد إليها التجار برًا وبحرًا ويجلبون إليها البضائع ، حتى كانت الإسكندرية زمن سلاطين المماليك ، هى التى تحدد أسعار سلع العالم[٣٥] ، وبحكم موقعها ، كانت تتصل بأوروبا مباشرة ، والمدينة تزدحم طوال العام ، بالأجانب الوافدين إليها للتجارة ، إلى جانب القناصل والسفراء والوكالات وأحياء كاملة وفنادق يمارسون فيها حياتهم الخاصة ، وشهدت المدينة أروع أيامها فى تلك الفترة ، والمدينة لا تقل أهمية عن أكبر مدن العالم التجارية مثل البندقية وجنوة ومرسليا ولشبونة وكلكتا وزتيون[٣٦] .

وقد تحدث الرحالة الذين وصلوا فى العصور الوسطى إلى الإسكندرية عن التوابل ، وذكروا أنه كان يوجد فى مدينة الإسكندرية شارع بأكمله أو بالأحرى حى ، مخصص لتجارة الفلفل ، مثل الرحالة چيوم ماشوا الذى أشار إلى شارع الفلفل فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م[٣٧] . وهى السنة التى تعرضت فيها المدينة لغزوة القبارصة ، وهذا دليل مادى على أن هذه الغزوة كان هدفها اقتصادى على حد تعبير النويرى السكندرى[٣٨] بل لقد بلغ الأمر أن أحد أبواب الإسكندرية القبلى المعروف بباب سدرة أطلق عليه فى العهد المملوكى اسم باب بهار ، لأن بهار الهند والشرق الواصل إلى القاهرة ، كان يحمل منها إلى الإسكندرية ، حيث يفرغ عند هذا الباب[٣٩] .

من هذا يتضح أن ازدهار مدينة الإسكندرية وثرائها ، كان الدافع وراء غزوة القبارصة لها ، لتحطيم قوة مصر السياسية متمثلة فى دولة المماليك ، حيث كانت التجارة مصدر ثرائها وقوتها .

صعوبة التصدى للقبارصة :

بنهاية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، انتهت اللاتينية المسيحية نهائيًا من الأراضى الشامية ، ولكنها استقرت فى جزر قبرص ورودس ومالطة ، ومن هناك أخذت تشن الحرب على الإسلام ، وقد تولى هذا الأمر من إعداد وتنظيم ، ملوك اللوزجنان والنبلاء القبارصة ، وتفصيل ذلك : أن جزيرة قبرص تقع فى الركن الشمالى الشرقى فى حوض البحر المتوسط فى مواجهة الموانى الشامية والمصرية ، فهى أشبه بالنافذة المطلة على تلك الموانى ، ومن ملك تلك الجزيرة ، ملك الإشراف على الحركة الملاحية والتجارية فى منطقة الشرق الأدنى ، فضلاً عن المعاملات التجارية القائمة بين سكان تلك المنطقة والقبارصة الدائبين على الهجوم والتنقل بين الموانى الإسلامية سعيًا وراء الرزق ، إلا أن الدور الفعال الذى قامت به قبرص فى هذه الفترة ، هو أن القبارصة والقراصنة اتخذوا من موانى الجزيرة قواعد حربية لنشاطهم البحرى ، وغدت قبرص بسقوط عكا فى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، معقلاً صليبيًا هامًا من الناحيتين الحربية والتجارية[٤٠] .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن أسرة لوزجنان صاحبة غزوة القبارصة للإسكندرية ، قد اشترت قبرص فى سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ، من فرسان الهيكل الذين كانوا بدورهم ، قد اشتروها من الملك ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا الذى كان قد استولى عليها أثناء الحروب الصليبية[٤١] .

لذلك اقترن حكم لوزجنان فى جزيرة قبرص فى تلك الفترة ، بمعارك بحرية وبرية بين مصر وقبرص ، فقد كان القراصنة يتخذون من جزيرة قبرص ملجأ لهم ، يردون إليها ويخرجون منها مستغلين أخوارها وخلجانها للإغارة على السفن الإسلامية والثغور القريبة فى شرق البحر المتوسط ، بل كانوا يصلون أحيانًا فى إغاراتهم حتى ساحل برقة فى الغرب من وادى النيل ، وذلك بحكم موقع الجزيرة الجغرافى السياسى[٤٢] .

ومن المعروف أن الفرسان الاسبتارية انتقلوا بعد سقوط عكا فى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، إلى قبرص وتدخلوا فى مشكلاتها الداخلية ، حى صاروا غير مرغوب فيهم، فتحولوا بدورهم إلى جزيرة رودس ، وكان من الطبيعى أن تتفق أهداف اللوزجانين فى قبرص والاسبتارية فى رودس ضد عدوهم المشترك ، المماليك فى مصر والشام . ناهيك أنه كان للاستبارية فى جزيرة قبرص ، إقطاعات ، عرفت باسم « دائرة الاسبتارية » وكان مركز هذه الدائرة هو مدينة « كولوس » قرب ميناء «ليماسول» ، وهذا يفسر لنا ، عناية الاسبتارية بشئون قبرص ، إذ كانوا يعملون بذلك على حماية أملاكهم فيها(٤٣) .

ومنذ أن تولى اللوزجانين حكم قبرص ، أخذوا على عاتقهم . مساندة الصليبيين بالشام ، حتى سقطت عكا فى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م فى أيدى المسمين ، وتم طرد آخر البقايا الصليبية ، عندئذ غدت قبرص تحت حكم اللوزجانين أكبر معقل صليبى بالشرق ، ومن هذا المعقل ، استمرت الذيول الرئيسية للحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، فقد تقدم هنرى الثانى لوزجنان ملك قبرص فى أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، بطلب إلى البابا كلمنت الخامس ، فحواه ، ضرورة إنشاء قوة صليبية لفرض حصار بحرى على شواطئ مصر والشام ، وقد رأى هنرى لوزجنان ، أن ذلك الحصار كفيل بإضعاف مصر إلى درجة أن يجعلها عاجزة عن مقاومة أى حملة صليبية تنزل بأرض مصر نفسها ، ومتى ما تم ذلك أصبح فتح الشام والاستيلاء على بيت المقدس أمرًا هينًا ، وإذا كان ملوك لوزجنان الأوائل لم ينجحوا فى القيام بعمل إيجابى ، فإن الملك بطرس الأول ، نجح فى اقتحام الإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م ، والاستيلاء عليها(٤٤) ، ذلك أن هذا الملك الذى اعتلى العرش فى سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥١م ، عوضًا عن أبيه الملك هيو الرابع ، كان يتمتع بشخصية فذة وحماسة دينية تعد نموذجا للفروسية فى العصور الوسطى(٤٥) ، لذلك صمم منذ أوائل عهده على أن يجعل من نفسه البطل المدافع عن المسيحية ضد الإسلام ، وأن يكرس جهوده لخدمة الغرض الصليبى وحرب المسلمين،

ومن ثم اعتبرت سنة ارتقائه العرش بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ الحروب الصليبية المتأخرة[٤٦] ، وقد اتخذ بطرس من الحماسة الصليبية وسيلة لاكتساب رضا البابا إربان الخامس وتأييده ، ووجد بطرس الأول من يغذى تلك الحماسة فى شخص وزيريه فيليب ميزيير وبطرس توماس ، وهما من كبار دعاة الحرب الصليبية فى العصور الوسطى المتأخرة . وكان بطرس مثل سلفه من ملوك الصليبيين يعتقد أن استرجاع بيت المقدس لا يأتى إلا بالقضاء على القوة الحربية فى مصر ، ولكن هذه المرة لم يهاجم دمياط التى تعود الصليبيون الهجوم عليها وإنما هاجم الإسكندرية ، بعد أن انتزع عدة قواعد هامة من السلاجقة الأتراك على شواطئ آسيا الصغرى ، قوّت شكيمته ، على أن بطرس لم يقنع بهذا القدر فى حربه مع المسلمين ، بل فكر فى القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة نجلاء . وعندما أدرك أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى استعدادات ضخمة تتطلب أموالاً كثيرة ورجالاً عديدين ، عزم على القيام برحلة إلى غرب أوروبا ليقنع ملوكها وأمرائها بأهمية مشروعه ويطلب منهم تأييده . واستغرقت هذه الرحلة نحوًا من ثلاث سنوات[٤٧] ، فأبحر بطرس من قبرص فى المحرم سنة ٧٦٤هـ / أكتوبر ١٣٦٢ ، ومر « برودس » حيث أحسن استقباله روجر رئيس الاسبتارية ، ومن رودس قصد البندقية حيث قضى ما يزيد على ثلاثة أسابيع فى إقناع لورنزوكلى دوق البندقية بإمداد الحملة بالسفن اللازمة ، وبعد ذلك قصد بطرس « أفينون » مارًا بجنوة ، حيث مكث حوالى شهرًا لتصفية الخلافات بين الجنوية والقبارصة من جهة وطلب مساعدة جنوة من جهة أخرى ، وفى أفينون اجتمع بطرس بالبابا إربان الخامس ، كما اجتمع بملك فرنسا ، حنا الثانى وأعلن البابا أمام الملكين عن قيام حملة صليبية جديدة فى رجب سنة ٧٦٥هـ / أبريل ١٣٦٣م ، وبعد ذلك أكمل بطرس رحلته فطاف « بفلاندر ، وبرابانت » وبعض المقاطعات والمدن الألمانية[٤٨] ، ثم قفل راجعًا بعد ذلك إلى باريس للاجتماع مرة ثانية بحنا الثانى ، وبعد زيارة « نورماندى » و « بريتانى » أبحر بطرس من « كاليه » إلى انجلترا لمقابلة ملكها إدوارد الثالث الذى أحسن استقباله وقدم إليه كثيرًا من الهدايا وبينما بطرس فى طريق العودة من انجلترا سمع بوفاة صديقه حنا

الثانى ملك فرنسا ، فأسرع إلى باريس لحضور تتويج الملك الجديد شارل الخامس ، ثم اتجه بعد ذلك إلى وسط أوروبا لطلب مساعدة الإمبراطورية الرومانية المقدسة(٤٩) . وفى « براغ » رحب به الإمبراطور شارل الرابع وأشار عليه بعقد اجتماع كبير فى « كراكاو » ، يحضره كازمير الثالث ملك بولندا ولويس الكبير ملك هنغاريا ، وقد تم ذلك الاجتماع فعلاً وأبدى الحاضرون استعدادهم التام لمساعدة بطرس الأول في مشروعه ، ثم قفل بطرس راجعًا إلى البندقية مارًا بالنمسا فوصلها فى ربيع الأول سنة ٧٦٦هـ / نوفمبر ١٣٦٤م ، ومنها أرسل إلى حنا - أخيه ونائبه بقبرص وطلب إليه إعداد السفن والرجال والمؤن وإرسال كل ذلك إلى رودس لانتظاره هناك ، ونفذ حنا ما طلب منه من استعدادات وأرسل إلى الملك بطرس يخبره بذلك ، فغادر البندقية ووصل إلى جزيرة رودس فى ذى الحجة ٧٦٧هـ / أغسطس ١٣٦٥م(٥٠) .

وفى رودس اجتمعت السفن والرجال ، فبلغ عدد السفن مائة وخمس وستون سفينة ، وأخذ بطرس يفكر فى اختيار المكان الذى يتوجه إليه لطعن المسلمين فى مقتلهم ، فنصحه أحد خاصيته واسمه بارسفل الكولونى بالتوجه إلى الإسكندرية وأن يهاجمها فى يوم الجمعة والمسلمون فى المساجد(٥١) .

ولم يفت بطرس قبل رحيل الحملة من رودس أن يتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع تسرب أخبارها إلى المسلمين ، لا سيما وأنه لم يثق بالإيطاليين الذين اشتركوا فى الحملة . ولذا أرسل إلى أخيه حنا بقبرص يطلب منه أن يمنع أية سفينة من مغادرة الجزيرة إلى بلاد الشام ، حتى يظل أمر الحملة سرًا ، ولم يعلن الملك لجنوده وجهة الحملة إلا بعد أن أبحرت السفن من رودس فى المحرم سنة ٧٦٧هـ / سبتمبر ١٣٦٥م وأصبحت فى عرض البحر(٥٢) .

ولكن على الرغم من هذه الاحتياطات وصلت أخبار الحملة إلى مسامع المصريين ، فيروى المقريزى « أن أهل الإسكندرية بلغهم قبل وصول الحملة بعدة أشهر أن الفرنجة عازمون على غزوهم »(٥٣) .

وذكر النويرى « أن أخبار الاستعدادات الحربية بقبرص لغزو الإسكندرية وصلت إلى مصر قبل الحملة نفسها بمدة طويلة ، والغالب أن هذه الأخبار إنما وصلت عن طريق التجار الذين ترددوا على الإسكندرية حينًا بعد آخر »(٥٤) .

ولكن يبدو أن الدولة المملوكية استخفت بتلك الأخبار ، « ولم يكن من الدولة اهتمام » ، على حد تعبير المقريزى(٥٥) . ولعل أصحاب الأمر كانوا لا يتصورون أن يجرؤ أحد على الإغارة على الإسكندرية ، وهى ذلك الثغر العظيم ، الذى رجع كل من قصده بالخيبة والفشل(٥٦) . يضاف إلى ذلك تحقير المماليك من شأن قبرص وملكها ، فقد أفرد النويرى صفحات للكلام فى ضآلة ملكها بين ملوك النصرانية وضعف مملكته بين ممالكهم(٥٧) . على أن الأمير زين الدين خالد . والى الإسكندرية كان من الأقلين الذين رأوا ضرورة الاحتياط عندما سمع بخبر استعداد بطرس لغزو الثغر ، فاهتم بزيادة تحصين المدينة ورفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر ، وأرسل إلى القاهرة يطلب من الأمير يلبغا الخاصكى مقدم العسكر(٥٨) ، المساعدة فى تحصين المدينة ، غير أن يلبغا سخر من تلك الأخبار وقال « إن القبرصى أقل وأرذل من أن يأتى إلى الإسكندرية »(٥٩) .

أما عن حالة الدولة المملوكية فى ذلك الوقت ، فكان السلطان الأشرف شعبان ، طفلاً فى الحادية عشرة من عمره ، وكان المتحكم فى البلاد ، يلبغا الخاصكى مقدم العسكر ، الذى كان جائرًا عسوفًا ، ولذا امتلأت القاهرة بمظاهر القلق والاضطراب الناشئة عن قيام سلطان قاصر ووصى متغطرس ، ولم تكن الإسكندرية أحسن حالاً من القاهرة ، ففى المحرم سنة ٧٦٧هـ / سبتمبر ١٣٦٥م ، كان والى الإسكندرية الأمير خليل صلاح الدين عرام ، غائبًا عن المدينة لأداء فريضة الحج(٦٠) ، فناب عنه فى ولاية الإسكندرية الأمير جنغرا ، الذى وصفه النويرى بأنه « سيئ التدبير عديم المعرفة »(٦١) . وأنه حول الإسكندرية إلى شبه مسرح للألعاب النارية ، إذ دأب على استعراض الجنود وهم بملابسهم الزاهية وأعلامهم الملونة ليلة بعد ليلة ويطلقون النفط الملتهب فى السماء ، على حين تلهى الإسكندريون بهذه المناظر الخلابة ،

وقضوا لياليهم فى التفكير فى أصناف المأكولات وألوان الطعام ، هكذا كانت الإسكندرية تقضى أيامها ولياليها عندما ظهرت أمامها الحملة الصليبية بقيادة بطرس الأول فى ٢٨ من المحرم سنة ٧٦٧هـ / أكتوبر ١٣٦٥م ، وعندما لاحت فى الأفق السفن الصليبية ظنها أهل الإسكندرية أولاً سفن البنادقة وقد أتو على عادتهم للتجارة كل عام ، ففرحوا لرؤيتهاوأخذوا يعدون عدتهم للموسم السنوى ، ولكن السفن لم تدخل الميناء على غير العادة ، فأوجس الناس خيفة ، واستولى الرعب عليهم ، وقضوا ليلتهم وهم فى خوف وفزع ، وأصبح الصبح ، فأقبلت سفن القبارصة وقد ملأت البحر لكثرتها ورست بظاهر بحر السلسلة[٦٢] ، وهنا أدركت الإسكندرية حقيقة الموقف ، فأغلق الأمير جنغرا أبواب المدينة ، وأخذ فى شحن القلاع التى من جهة البحر بالرجال والرماة واستدعى عربان البحيرة فأقبلت جموعهم للدفاع عن الثغر[٦٣] . وخرجت طائفة من المقاتلين إلى الأسوار حيث باتوا يتحارسون طوال الليل ، كل ذلك والعدو ساكن لا يتحرك ، مما جعل العامة والدهماء يستهزئون بشأن عدوهم ، فخرج الباعة والصبيان وصاروا فى لهو « وليس لهم اكتراث بالعدو »[٦٤] .

وفى صباح الجمعة ٣٠ من المحرم / ١٠ أكتوبر ، أنزل بطرس الأول رجاله وخيله إلى الشاطئ وأمرهم بالهجوم . فوجدوا أبواب المدينة محكمة الإغلاق ، قوية التحصين ، بحيث تعذر عليهم اقتحامها . وعندئذ عقد الملك مجلسًا للمشورة فنصحه أحد الفرسان بالعدول عن مشروعه لأن الإسكندرية أقوى من أن تؤخذ وفتحها يتطلب مجهودًا طويلاً ، ولكن بطرس لم يكن بالرجل الذى يتراجع عن غرضه بمثل هذه السهولة ، فلم يستمع لقول ذلك الفارس ، وإنما أمر بمعاودة الهجوم ومواصلة القتال[٦٥] .

« وعندما شدد القبارصة هجومهم أنزلوا بالمسلمين هزيمة خارج الأبواب وأمطروا العربان بسهامهم ، فطاروا كطيران الحمام » . وانهزموا إلى ناحية السور . وأثر انهزامهم على هذه الصورة فى نفوس بقية المقاتلين ، فتقهقروا عن السور وصار جيش المسلمين بهزيمة العربان مكسورًا ، على حد تعبير النويرى[٦٦] .

ثم أدرك القبارصة ضعف سور المدينة من جهة الميناء الشرقي بعد تراجع الجنود ، ولم يجدوا أحدًا يصدهم عنه أو يقف فى سبيلهم ، فتقدموا حتى باب الديوان (الجمرك) وأحرقوه ، ثم عبروا السور على سلالم خشبية وأخذوا يدخلون المدينة جماعات ، ومن الواضح أن هزيمة المسلمين إنما ترجع إلى استهزائهم بعدوهم واستصغارهم لشأنه ، هذا فضلاً عن أنهم كانوا دون الصليبيين عدة واستعدادًا ، فبينما ارتدى الصليبيون الدروع الحديدية والخوذ اللامعة وبأيديهم السيوف القاطعة ، كان المسلمون « لحمًا على عظم » ... فكيف يقاتل اللحم الحديد وكيف يبرز العارى لمن كسى بالزرد النضيد ؟ على حد تعبير النويرى(٦٧) . وأصيب جنغرا نائب والى الإسكندرية في تلك المرحلة الأولى من القتال بسهم من سهام الفرنج ، فأتى بيت المال وحمل ماكان فيه من ذهب وفضة ، كما قبض على تجار الفرنج وقناصلهم بالثغر ، وكانوا نحو خمسين ، وقادهم إلى جهة دمنهور وهم مقيدون بالسلاسل ، ثم أخذ القبارصة ينتشرون فى أرجاء المدينة ، فجفل الناس ، وتركوا المدينة بمن فيها للفرنج . « حتى ضاقت الأبواب على الفارين لكثرتهم فهلك منهم المئات من شدة الزحام ، واكتظت الحقول والقرى المجاورة بالإسكندريين »(٦٨) .

وهكذا استطاع بطرس أن « يشتت شملهم أجمعين » وفى وسط تلك الطامة الكبرى ، انتهز العربان الفرصة للنهب والسلب ، فوقع الإسكندريون بين نارين ، كما ساءت حالتهم بسبب قلة الطعام ، إذ استغل الباعة والتجار اضطراب الأحوال وعمدوا – كعادتهم إلى رفع أسعار المأكولات حتى اضطر كثير من الإسكندريين إلى بيع ملابسه لشراء ما يمسك به رمق أهله(٦٩) .

هكذا سقطت الإسكندرية العظيمة فى يد بطرس الأول ملك قبرص « فدخلها باطمئنان » وحل المقدور بأهل الثغر ، فقتل منهم من قتل وأسر من أسر ، وهام الكثيرون على وجوههم ، ويعجب النويرى ، كيف سقطت الإسكندرية بهذه السرعة العجيبة ويقول : « إن العادة جرت بأن المدن تظل تقاوم الحصار عامًا وعامين ، فما بال الإسكندرية بحظها الغائر تؤخذ من المسلمين فى ساعتين ؟ » ثم ينحى باللائمة

على أهل الثغر ويتهمهم بالتفريط وعدم الثبات فى المقاومة . إذ لو بقى كل واحد منهم بداره ورمى الفرنج من أعلاه بالطوب والحجارة لسلمت للمسلمين ما بالدور على الأقل »[٧٠] .

دخل بطرس المدينة ، « فاستلم الناس بالسيف » ، وفعل رجاله بها ما يضيق المقام عن شرحه، إذ نهبوا الحوانيت والفنادق وأحرقوا القصور والخانات ، واعتدوا على النساء والبنات ، وخربوا الجوامع والمساجد ، وقتلوا كل من صادفوه من الناس فى الشوارع والمنازل والجوامع والخانات والحمامات[٧١] . وبلغ من وحشية الفرنج ورغبتهم فى التشفى أنهم كانوا يقتلون المرأة ويذبحون ابنها على صدرهاوظل الفرنج على هذه الحال عدة أيام تعتبر من أسود الأوقات فى تاريخ الإسكندرية ، ولم يفرق الصليبيون بين مسلم ومسيحى ويهودى ، وبين ما هو للمسلمين وما هو لغير المسلمين، فأحرقوا فنادق الكتلانيين والجنويين والمارسيليين وغيرهم ، واستعانوا فى التعرف على أماكن الثروة ودور الأغنياء بسكان الثغر من الفرنجة الذين كانوا يعيشون فى المدينة ، فدلوهم على الخبايا والمكنونات فنهبوها ، أما البضائع والنفائس والأنهاب فإنهم أرسلوها إلى مراكبهم على ظهور الإبل والخيل والبغال والحمير حتى إذا ما انتهت الدواب من أداء مهمتها طعنوها بالرماح وتركوها ملقاة بالميناء حتى عاد المسلمون إلى الثغر فأحرقوا جثثها المتعفنة ، وبذلك يكون الفرنج قد أتوا على ما بالمدينة من « صامت وناطق » على حد تعبير ، ابن حبيب[٧٢] .

ويروى ، ماشو المؤرخ الأجنبى ، أن المسلمين حاولوا اقتحام المدينة مساء الجمعة، ولكن بطرس الأول اضطرهم صباح السبت ١ صفر / ١١ أكتوبر ، إلى مغادرتها وطاردهم فى الحقول المجاورة[٧٣] . ولما كانت جموع المماليك بقيادة الأمير يلبغا الخاصكى مقدم العساكر ، لم تصل الإسكندرية ، حتى ذلك الوقت ، فإنه يصعب تفسير رواية ماشو إلا على أساس ما ذكره النويرى من أن جموع العربان كانت تغير على المدينة أثناء الليل لا لقتال الفرنج وإنما لنهب ما يتركونه ، ذلك أن الإسكندرية اتسعت على الصليبيين فكانوا يحملون إلى سفنهم ما هو جليل القدر ،

وما دون ذلك كانوا يتركونه مبعثرًا فى الطرقات ، فكان العريان يدخلون المدينة أثناء الليل لنهب تلك المتروكات(٧٤) .

وفى صباح السبت ١ صفر / ١١ أكتوبر ، عقد بطرس الأول اجتماعًا من كبار فرسانه وأعوانه لأخذ رأيهم في الخطوة التالية ، فنصحه أحد رجاله وهو الكونت دى توران بمغادرة المدينة فورًا قبل أن تأتى الجيوش الإسلامية ويتعذر على الصليبيين الخلاص ، وأيد رأى الكونت دى توران ، معظم الفرنج(٧٥) . وأصر الفرنج على العودة بسرعة وهبوا فى وجه الملك قائلين : « لقد مكثنا هنا أكثر من اللازم ، وهذا ليس فى صالحنا بتاتًا ، إذ يجب أن نعود مباشرة إلى قبرص » ، ولكن الملك أشار بالتمسك بالإسكندرية والاحتفاظ بها حتى تأتى النجدة من أوروبا ، وكان بطرس توماس وفيليب دى ميزمير يؤيدان الملك بشدة فى عدم التخلى عن الإسكندرية بأى حال من الأحوال ، إلا أن عددًا كبيرًا من الصليبيين تركوا أماكنهم وذهبوا إلى السفن ، بل إن الصليبيين الإنجليز أبو قضاء الليل فى المدينة وأبحروا سرًا إلى قبرص ، فاضطر بطرس فى النهاية إلى التفكير فى الجلاء لاسيما بعد أن ظهرات طلائع الجيوش الإسلامية التى أقبلت بقيادة الأمير يلبغا الخاصكى ، لتخليص الإسكندرية ، بعد فوات الأوان(٧٦) .

ذلك أن خبر استيلاء بطرس على الإسكندرية ، وصل القاهرة يوم السبت ١صفر/١١ أكتوبر ، فظن الأمير يلبغا ، أن الأمر لا يعدو أن يكون مكيدة دبرها له خصومه ، فنادى بالإسراع لإنقاذ الإسكندرية وخرج الجند « من غير ترتيب ولا تعبئة »(٧٧) .

ولما كان النيل فى فيضانه والمياه تغمر الأراضى اضطر الجند إلى اتباع الطريق الصحراوى الطويل مما أخر وصولهم الإسكندرية إلى يوم الخميس ٦ صفر / ١٦ أكتوبر ، والصليبيون فى مرحلة الإقلاع بسفنهم نحو قبرص ، بعد أن أخذوا معهم نحوًا من خمسة آلاف أسير منهم « المسلم والمسلمة واليهودى واليهودية والنصرانى والنصرانية »(٧٨) ، هذا عدا ما شحنت به المراكب من البضائع المنهوبة

والنفائس المسلوبة حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها فترك الصليبيون على الساحل فضلات البهار التى لم يجدوا لها موضعًا بسفنهم ، كما أخذوا يلقون ببعض حمولة السفن فى البحر لتخفف من كثرة الحمولة . ومن الواضح أن يلبغا وصل الإسكندرية فى جند كثيف « كالجراد المنتشر » عقب إخلاء الفرنج لها ، فشهد ما حل بها من دمار وخراب ، ورأى جثث القتلى وقد انتفخت وجافت ، فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما خرب وأحرق ، كما أمر بحمل تجار الفرنج الذين بقوا بالإسكندرية فسيقوا إلى القاهرة مشاة حفاة ، ثم قبض يلبغا على كثير من النصارى بمصر والشام وألزمهم بتقديم أموالهم لفداء أسرى المسلمين[٧٩] .

على أن ذلك كله لم يمسح عار الاستيلاء على الإسكندرية فى ساعتين حتى حق للمؤرخ ابن حبيب أن يقول : « يا لها من رزية عظم أمرها وبلية سوى القلوب جمرها وصارت فيها أحلام الأقوام واختلفت فيها الأقوال ... »[٨٠] . ولا عجب إذا تركت هذه الحادثة أثرًا بليغًا فى نفوس المسلمين كافة والمصريين خاصة ، ويكفى لكى نقف على مبلغ ذلك أن نلقى نظرة على المرثيات العديدة التى رثى بها المعاصرون الثغر ومنها مرثية للنويرى نفسه[٨١] .

أما بطرس الأول ، فعاد إلى قبرص ، حيث أقيمت له الاحتفالات ، بينما أخذ هو فى كتابة الرسائل إلى البابا إربان الخامس وملوك الغرب يخبرهم بما أحرزه الصليبيون من نجاح على يده ، ويوضح لهم أنه اضطر إلى الجلاء عن الإسكندرية لقلة ما لديه من الوسائل الحربية ، ويؤكد لهم عزمه على معاودة الكرة ، إذا وجد معينًا ، ويبدو أن الاستيلاء على الإسكندرية أحدث دويًا شديدًا فى الغرب وعمت الفرحة ربوعه ، حتى أن المؤرخ ماشو Machout ألف ملحمة عنوانها La Pris d'Alex ، تتضمن ما حققته هذه الغزوة للغرب الأوروبى ، فلم يكد البابا إربان الخامس يسمع الخبر حتى أرسل إلى بطرس مهنئًا ، كما أرسل إلي ملوك أوروبا وأمرائها يناشدهم أن يسرعوا في تقديم المساعدة إلى ملك قبرص الأول « الأسد الشجاع » علي حد التعبير البابوى[٨٢] . ودبت الحماسة في نفس شارل الخامس ملك فرنسا ، فأرسل

إلى بطرس يخبره بأنه سوف يبعث إليه بجيش كبير يحطم به قوة المسلمين ، كما سمع كثير من المغامرين من فرسان أوروبا بكثرة الغنائم التى غنمها الصليبيون فنزحوا إلى قبرص للدخول فى خدمة ملكها ، وقالوا غداة وصولهم إنهم لا يستطيعون صبرًا أو انتظاراً لوصول إمدادات جديدة من الغرب وأنهم يريدون العمل فورًا لخدمة الدين ، غير أن الأمر وقف عند ذلك الحد أو كاد ، لأنه فيما عدا زمرة هؤلاء المغامرين لم يلب أحد من أصحاب التيجان نداء البابا تلبية جدية ، بل إنهم لاموا بطرس على إخلائه الإسكندرية وتخليه عنها ، وقالوا إنه من الصعب تعويض تلك الفرصة بعد أن تنبه المسلمون وأخذوا حيطتهم ، وكان الواجب على بطرس الاحتفاظ بالمدينة حتى تأتيه النجدة ، والواقع أنه على الرغم من كثرة الغنائم التى غنمها الصليبيون من الإسكندرية وعظم الخسارة التى ألحقوها بالمسلمين ، فإن حملة بطرس الأول ، تعتبر فاشلة حيث إنها لم تستطع الاحتفاظ بالثغر . ويبدو أن القبارصة أنفسهم اعترفوا بذلك ، فندم بطرس على إخلائه الإسكندرية ندمًا أثار الكمد فى قلبه بقية حياته[٨٣] . ولا عجب فإن النويرى قال بأن الصليبيين لو تمسكوا بالإسكندرية وأقاموا بها لتعب المسلمون فى إخراجهم منها لحصانة أسوارها ، ولكن بطرس « دخلها لصًا وخرج منها لصًا »[٨٤] ..لذلك تعتبر حادثة الإسكندرية آخر محاولة صليبية لتنفيذ الفكرة الفرنسية القديمة القائلة بوجوب الاستيلاء على مصر أولاً وتحطيم قوتها تمهيدًا لهدم القوى الإسلامية العربية فى الشرق الأدنى واسترجاع بيت المقدس[٨٥] .

وكان صدى هذه الغزوة بعيدًا في بلاد المسلمين ، حتى أن ملوك بنى الأحمر وهم من ملوك الطوائف في غرناطة بالأندلس ، كانوا يستحثون جنودهم المقاتلين ضد النصارى وهم ينادون بثأر الإسكندرية[٨٦] ، بل تضامنت العراق مع مصر بعد غزوة القبارصة للإسكندرية ، فقد ذهب بعض التجار القبارصة إلى العراق ، ولكن ملك العراق الخان المغولى لم يمكنهم من ذلك وقال لهم : « أنا اسمى أويس بن حسن ابن حسين مسلم ابن مسلم ، ارجعوا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتم فى

الإسكندرية وأتونى بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته ، وحينئذ تبيعون ببلدى وتتباعون منه »[٨٧] .

تحويل الإسكندرية من الولاية إلى النيابة

أحس السلطان الأشرف شعبان بضرورة تحصين مدينة الإسكندرية ، والعناية بها وبشئونها ، بعد أن أصبحت مطمع الصليبيين ، وكانت غزوة القبارصة تجربة قاسية مريرة لم ينسها المصريون ، وازدادت أهمية الإسكندرية فى أنظارهم ، فعمد السلطان الأشرف شعبان بتحويلها من الولاية إلى النيابة على أن يقوم بشئونها نائب عنه ينفرد بحكمها ويكرس جهوده لتحصينها والإشراف على دفاعها وأصبح هذا النائب من بين أمراء المئين ، إذ كان يتولى أمرها قبل ذلك ولاة من أمراء الطبلخاناة[٨٨] . كما ذكرنا من قبل ، ويعد الأمير بكتمر بن عبد الله صفى الدين أول نائب عليها في ربيع الأول سنة ٧٦٧هـ/نوفمبر١٣٦٥م[٨٩] ، وهكذا أصبحت الإسكندرية وما يليها إقليمًا يحكمه نائب ، له من السلطان ما يماثل سلطات نواب بلاد الشام ودمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد من المملكة الشامية ، وكان يعتبر في نفس الوقت صورة من السلطان نفسه ، إذا كان يرأس باسمه الحفلات الرسمية التى تتسم بكل مظاهر الترف التى تفرضها القواعد الرسمية ويقوم مقامه فى أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ، وحسبنا دليلاً على ذلك ما رواه القلقشندى بصدد هذه النيابة إذ يقول : « وهي نيابة جليلة نائبها من الأمراء المقدمين يضاهى فى الرتبة نيابة طرابلس وما فى معناها أو يقاربها ، وبها حاجب أمير عشرة وحاجب جندى[٩٠] ووالٍ للمدينة ، وأجناد حلقة[٩١] مائتا نفر ، يعبر عنهم بأجناد المائتين ، وبها قاضى قضاة مالكى ، وقاضٍ حنفى مستحدث ، وربما قاضٍ شافعى ، و المالكى أكبر الكل بها ، وهو المتحدث فى أموال الأيتام والأوقاف ، على أنه ربما ولى قضاء قضاتها فى الزمن الماضى شافعى ، وبها موقع يعبر عنه فى البلد بكاتب السر[٩٢] . وناظر متحدث فى الأموال الديوانية ، ومعه مستوف وتحت يده كتاب وشهود ، وبها محتسب[٩٣] . وليس بها قضاة عسكر ولا مفتو دار عدل ووكيل بيت المال بها نائب

عن نائب بيت المال بالقاهرة ، وتركز بها أمراء المقدمين والطبلخانات في غير الزمن الذى يمتنع سير المراكب الحربية في البحر لشدة الريح فيها ، ووالٍ للتركيز يسمى الحاجب »[٩٤] .

وأما عن موكب نائب الإسكندرية « فكان حين يخرج من المدينة من باب البحر في موكب رسمى يشبه السلطان حين يخرج من القلعة ، وكان يصحبه عند خروجه مماليكه وأجناد الحلقة والأمراء والشبابة السلطانية بين يديه ، وكان موكبه يبدأ من دار النيابة[٩٥] ، ويخرج من باب البحر ، ويسير خارج المدينة قدر ساعة ، ثم يعود من نفس الطريق إلى دار النيابة ، وإذا كان فى هذا سماط وضع الكرسى فى صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ، ووضع عليه سيف نمجاة[٩٦] سلطانية ، ومد السماط تحته ، وأكل مماليك النائب وأجناء المثين ، وجلس النائب بجنبه من الإيوان، والشباك مطل علي مينا البلد ، ويجلس القاضى المالكى عن يمينه ، والقاضى الحنفى عن يساره ، والناظر تحته ، والموقع بين يديه[٩٧] ، ورءوس البلد على قدر منازلهم ، وترفع القصص فيقرؤها الموقع على النائب فيفصلها ، بحضرة القاضى ، ثم ينصرف الموكب »[٩٨] . لذلك اكتسبت الإسكندرية أهمية فوق أهميتها ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر ، واهتم نائبها بإصلاح ما تخرب من منشآتها بسبب غزوة القبارصة ، فرمم الأسوار وأعاد تنظيم المدينة مدنيًا وحربيًا ، وقوى حامية المدينة ، وزاد في عددها وزودها بأحدث معدات الدفاع كالمدافع[٩٩] . وانفردت الإسكندرية بالمكانة الأولى بين سائر ثغور مصر ، وتدفقت عليها الثروات الضخمة من التجارة الشرقية والغربية ، وقد كان لذلك أثره ليس فقط فى ازدهار عمرانها وتقدمها تقدمًا شهد به الرحالة المسلمون والمسيحيون ممن زاروا المدينة فى هذا العصر[١٠٠] . بل امتد هذا الأثر أيضًا إلى سلاطين المماليك الذين حرصوا على اختيار نواب هذه المدينة بأنفسهم ، وحسبنا أن المصادر المملوكية قد أمدتنا بأسماء كل من شغل هذه الوظيفة وأرخت لهم ، نظرًا لأهمية الدور الذى لعبوه وذلك على الرغم مما ذكره القلقشندى « من أن نيابة هذا الثغر مع جلالة قدرها ورفعة محلها

ليس لها عمل يحكم فيه نائبها ولا قاضيها ولا محتسبها ، بل حكمهم قاصر على المدينة وظواهرها ولا يتعدى ذلك بخلاف غيرها من سائر نيابات المملكة »[١٠١] . ونحن نجهل فى الواقع المقصود بهذه العبارة ، ويرى الدكتور أحمد عبد الرازق[١٠٢] ، أن القلقشندى ربما قد أراد أن يشرك هؤلاء النواب ورجالهم فى إدارة دفة الأمور بالبلاد المصرية ، وأن يشاركو مشاركة فعالة فى شئون الحكم ، خاصة وأن أغلب الشواهد التاريخية ، تشير إلى عناية هؤلاء النواب بأمور الثغر طوال عصر سلاطين المماليك ، حيث تجلت هذه العناية من خلال الرخاء الاقتصادى الذى شهدته الإسكندرية ، والذى انعكس بدوره على تلك المنشآت المتنوعة التى أقيمت بالمدينة تحت حكم سلاطين المماليك[١٠٣] .

■●■●■

الفصل الثالث

حالة مصر منذ غزوة القبارصة
حتى عهد برسباى
(٧٦٧-٨٢٥هـ - ١٣٦٥-١٤٢١م)

كشفت غزوة القبارصة للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، الستار عن مدى الضعف والفوضى واضطراب أحوال البلاد وعدم الاستقرار ، الذى شهدته البلاد منذ وفاة السلطان الناصر محمد ، حتى تاريخ تلك الغزوة (٧٤١-٧٦٧هـ / ١٣٤٠-١٣٦٥م) ولقد تمثل ذلك فى ضعف حامية الإسكندرية التي فشلت في التصدى للقبارصة ، الذين فعلوا بالإسكندرية ما يحلو لهم وعادوا إلى بلادهم غانمين سالمين، واستمر هذا الضعف بعد تلك الغزوة ، حتى عصر السلطان برسباى ، الذي تولى الحكم فى سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م[١٠٤] . وذلك بسبب الأوبئة والفتن والمؤامرات التى سادت مصر ، فى تلك الفترة ، وهجوم التتار على بلاد الشام ، ناهيك عن تعدى القراصنة على سواحل مصر والشام ، فساءت أحوال البلاد ، عما كانت عليه قبل تلك الغزوة .

انتشار الأوبئة والفتن والمؤامرات :

يروى ابن إياس أنه فى سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٦م ، وفى عهد السلطان الأشرف شعبان ، فشا فى القاهرة الوباء ، حتى فني كثير من الناس ، وقيل إنه كان يخرج من القاهرة كل يوم اثنى عشر ألف جنازة[١٠٥] ، كما حدث ذلك أيضًا فى عهد السلطان

برقوق فى سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م ، وارتفعت أثمان الحاجيات[١٠٦] . وفى عهد ابنه السلطان فرج في سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م ، وفي سنة ٨١٣هـ/١٤١٠ ، فشا فى البلاد وباء جارف راح ضحيته خلق لا يحصى[١٠٧] .

كذلك فشا الطاعون وفتك بالناس فى عهد السلطان المؤيد شيخ فى سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م ، واستمر حتى سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م[١٠٨] . مما أدى إلى زيادة القحط والغلاء الذى بلغ ذروته بسبب نقص النيل ، فقل القمح ، وامتنع الخبز من الأسواق وازداد الغلاء وماتت الدواب لقلة علفها واضطر السلطان المؤيد وأولى الأمر إلى بذل المعونة للفقراء[١٠٩] .

ناهيك عن الفتن والمؤامرات ، التى كانت أشر آفة ابتليت بها مصر ، تلك الفتن المحتدمة والمؤامرات المستعرة الواسعة النطاق ، التى دبرها الأمراء بعضهم ضد البعض الآخر ، أو دبرها بعض الأمراء ضد سلطانهم أو قام بها عدد من المماليك ضد سادتهم من سلاطين أو أمراء ، وقد أدى إلى ذلك طريقة الحكم المتبعة ، التي غرست الآمال الواسعة في نفوس الأمراء للوصول إلى العرش ، أو الاستحواز على المال والجاه والنفوذ ، فأثاروا الفتن ابتغاء أن تكون الورقة الرابحة من نصيبهم ، وقد ساعدهم علي ذلك أيضًا ، تلك الحزبية التي كانوا يؤلفونها حول أنفسهم ، فكل أمير له أتباعه ومماليكه الذين اشتراهم بماله يتعصبون له ويأتمرون بأمره ، هكذا كان الاضطراب السياسى الداخلى ظاهرة عامة طوال تلك الفترة ، وتفسير ذلك ، هو أن المفاهيم السياسية لدولة المماليك ، جعلت العرش حقًا للجميع ، مما أدى إلى تنافس الأمراء على العرش الذي اعتبروه حقًا للأقوى ، فامتلأت شوارع القاهرة بالفتن ، وتحولت إلي ميدان قتال ، يميد إلى عدة أيام ، وسرعان ما تخلوا الطرقات من روادها وتقفر الأسواق ويهجرها الباعة[١١٠] .

ولقد زاد التدهور السياسى ، نتيجة ، تغلغل النفوذ المتناهى للمماليك الجلبان ، وعدم قدرة السلطان والأمراء على ردعهم ، فتكررت حوادث الشغب ، ونهب الأسواق والاعتداء على الناس ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، اضطراب أحوال البلاد ،

ولقد كان النزاع على السلطة سريعًا بدليل تغير السلاطين وقصر عهودهم ، حتى لكأنما ، بدا للمماليك أن دولتهم على طريق الزوال ، فسعى كل منهم للظفر بهذا المنصب قبل فوات الأوان ، ولا عليه إن طال حكمه أو قصر أو قتل أو تندر العامة به[١١١] .

ويضيق بنا المقام هنا للتعرض لكافة الفتن والمؤامرات الداخلية ، أو تلك التى دبرها أمراء الشام الذين شقوا عصا الطاعة وتمردوا على السلطان الحاكم ، فعاثوا فى البلاد فساداً ، مما دفع بعض السلاطين إلى تجريد الحملات التى كلفت السلطنة فوق طاقتها للقضاء على هذا التمرد وتأديب أولئك العصاة من أمراء ونواب الشام فى تلك الفترة[١١٢] .

وطبيعى أن تؤثر تلك الأوبئة والفتن والمؤامرات على مرافق الحياة ، فترميها بسهم صائب من الإهمال ، كما أنها كانت تشغل بال السلاطين لإخفاقها والتصدى لها ، كما كانت تدفع كل خارج على الدولة إلى الطمع فيها وتوحى إلى الأعداء إلى الانقضاض عليها والانتقاص منها ، وهذا ما حدث بالفعل ، عندما تعرضت البلاد لغزوة القبارصة فى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م ، وأصحاب البلاد عاجزون عن التصدى لها ، فلم يحركوا ساكناً[١١٣] .

هجوم التتار على بلاد الشام

حدثت تطورات فى سلطنة المماليك ، عجلت بالصدام مع التتار ، فقد مات السلطان برقوق فى شوال سنة ٨٠١هـ / يونية ١٣٩٩م ، وخلفه ابنه الناصر فرج الذى كان لا يزال قاصراً ، مما دفع نائب دمشق الأمير تنم إلى شق عصا الطاعة على السلطان فرج الذى اضطر إلى الخروج إلى دمشق لتأديب نائبها المتمرد[١١٤] ، هذا فى الوقت الذى زحف فيه تيمور لنك زعيم التتار لغزو بلاد الشام والانتقام من المماليك[١١٥] .

ففى المحرم سنة ٨٠٣هـ / أغسطس ١٤٠٠م ، تقدم تيمور لنك إلى ملطية فاستولى عليها ، ومنها اتجه إلى حلب ، فضرب مخيمه أمام أسوارها فى ربيع الأول

سنة ٨٠٣هـ / أكتوبر ١٤٠٠م[١١٦] ، وأرسل سفيرًا من قبله إلى الأمير دمرداش المحمدى نائب حلب يعده باستمراره فى نيابته . إلا أن الأمير دمرداش أمر بضرب عنق سفير تيمور لنك ، ويبدو أن دمرداش ، كان يعتقد أن قوات المماليك قادرة على الوقوف فى وجه تيمور لنك ومنعه من مواصلة غزو بلاد الشام ، وهذا دليل على سوء تقدير أمراء المماليك لقوات التتار من ناحية وعدم إدراكهم لحالة التفكك التى سادت بين المماليك فى عهد السلطان فرج من ناحية أخرى[١١٧] .

وخرجت قوات المماليك واشتبكت مع قوات تيمور لنك فى قتال عنيف ، غير أن القتال لم يكن متكافئاً ، فنجح تيمور لنك فى إنزال الهزيمة بالمماليك[١١٨] ، واقتحم مدينة حلب فى ١١ ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ / ٢ نوفمبر ١٤٠٠م ، ثم اتجه تيمور لنك إلى دمشق ، هذا فى الوقت الذى كان ميران شاه بن تيمور لنك قد استولى على حماة فى ١٤ ربيع الأول / ٥ نوفمبر من نفس السنة ، كما استولى رجال تيمور لنك أيضًا على حمص وبعلبك وصيدا وبيروت[١١٩] .

واتسم موقف السلطان فرج والأمراء المماليك ، من أحداث الشام في تلك الفترة بالعجز الشديد والقصور ، ومع أن نواب الشام أرسلوا التحذيرات إلى القاهرة منذ وصول طلائع قوات تيمور لنك ، فإن السلطان فرج تشاغل عن ذلك «بشرب الخمر وسماع الزمر حتى تمكن تيمور لنك من البلاد ، فعم فيها الفساد»[١٢٠] ، هذا فضلاً عما كان فيه الأمراء المماليك فى القاهرة آنذاك من تطاحن ورغبة كل منهم فى الوصول إلى منصب السلطنة وإبعاد غيره عنها بصرف النظر عن صالح الدولة[١٢١] .

وفي أوائل ربيع الآخر سنة ٨٠٣هـ / نوفمبر ١٤٠٠م ، وصل الأمير اسنبغا الدوادار إلى قلعة الجبل ، وقدم تقريراً إلى السلطان فرج ، يفيد باستيلاء تيمور لنك على حلب بالتواطؤ مع نائبها الأمير دمرداش[١٢٢] . وفي تلك اللحظة شعر السلطان فرج بخطورة الموقف واستعد للحرب وأصدر أوامره لأمرائه بتعبئة قواتهم ، لقتال تيمور لنك ، ثمّ تحرك السلطان بقواته فى ٨ ربيع الاخر ٨٠٣هـ / ٢٦ نوفبر ١٤٠٠م ،

إلى بلاد الشام ، مما دفع تيمور لنك إلى مواصلة زحفه علي دمشق ، إلا أن السلطان فرج قد وصلها قبله فى ٦ جمادى الأولى / ٢٣ ديسمبر من نفس السنة ، وضرب مخيمه بظاهر المدينة ، وأخذ فى الاستعداد لمواجهة تيمور لنك الذى أقام معسكره على بعد ميلين من المدينة وأخذ فى مراقبة السلطان فرج[١٢٣] .

ويبدو أن تيمور لنك أدرك بدهائه ، اختلاف الأمراء المماليك على السلطان فرج ، فأراد توسيع شقة ذلك الخلاف ، فأرسل إلى السلطان ، طالبًا الصلح ، وصح ما توقعه تيمور لنك إذ دب الانقسام فى صفوف قوات السلطان فرج ، إذ رأى فريق مواصلة القتال ، وقد ظن ذلك الفريق أن تيمور لنك قد طلب الصلح لعجزه عن قتالهم ، فى حين رأى فريق آخر الاستجابة لطلب تيمور لنك ووقف القتال ، ونتيجة لذلك الانقسام فى الرأى فإن فريقًا ثالثًا قد أيقن بحلول الهزيمة وقرب زوال دولة السلطان فرج ، وبادر ذلك الفريق بالاختفاء عن المعركة[١٢٤] . ثم أشيع فى دمشق أن الأمراء الهاربين قد توجهوا إلى مصر لكى يسلطنوا الأمير لاچين الچركسى ، فأسرع السلطان فرج وباقى الأمراء بمغادرة دمشق فى ٢١ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ / ٧ يناير ١٤٠١م ، لتدارك الأمر فى القاهرة ، وتركوا دمشق بلا قيادة أو قوات تدافع عنها ، وقد نهبت العشائر قوات المماليك فى أثناء انسحابها إلى مصر وسلبوا ما معهم من أموال وأسلحة وأمتعة[١٢٥] ، ثم واجه أهل دمشق بعد رحيل السلطان فرج موقفًا حرجًا ، فأصدر تيمور لنك أوامره لقواته بمحاصرة قلعة دمشق ، حتى استسلمت بعد قتال شديد ، كما صادر تيمور لنك أموال وممتلكات السلطان فرج والقوات المصرية بأسرها من أسلحة ودواب ، كما استولى على أموال كل من هرب من سكان دمشق[١٢٦] .

وبعد أن وزع أحياء المدينة على أمرائه ، أطلقهم داخلها ، فعاثوا فيها فساداً ، وأنزل جنود تيمور لنك بالناس أقسى أنواع العقوبات ، ومارس أمراء تيمور لنك النهب قدر استطاعتهم ، وأخيرًا أضرموا النار فى المنازل والمساجد ، وهلك معظم أهل المدينة ، ثم غادر تيمور لنك دمشق فى ١٣ شعبان سنة ٨٠٣هـ / ١٩ مارس

١٤٠١م ، مصطحبًا معه فى عودته كل الحرفيين المهرة الذين حفلت بهم دمشق ، مما يدل على حجم تلك الخسارة التى أحاطت بالبلاد بعد تلك الغزوة المريرة ، التى ظل أثرها حتى خلال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ذلك أن أحد الحجاج الغربيين عندما زار دمشق من أجل شراء حرير سورى ، قيل له إن الحرير الموجود مستورد من البندقية(١٢٧) .

كذلك استطاع تيمور لنك أن يلحق الهزيمة بالسلطان بايزيد العثمانى وأسره فى معركة أنقره سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م ، فأصبح بذلك أكبر قوة عسكرية فى غربى آسيا . ولولا سخرية القدر الذى عجل بوفاة تيمور لنك ، فى سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م ، ما تخلصت دولة المماليك من هذا العدو الخطير الذى أوشك على الإحاطة بها(١٢٨) .

خلاصة القول ، أن دولة المماليك فى مصر والشام ، كانت بين شقى الرحى ، تعدى القراصنة على سواحل مصر والشام ، من ناحية ، وهجوم التتار على بلاد الشام من ناحية أخرى ، ويتضح من مراسلات تيمور لنك إلى السلطان فرج إصرار تيمور لنك على إقامة الخطبة باسمه ونقش اسمه على السكة ، وهذا يعنى خضوع سلطنة المماليك لنفوذه(١٢٩) . وعلى الجبهتين ، لم يستطع المماليك أن يحركوا ساكناً، بسبب عجزهم العسكرى ، وسوء أحوالهم الاقتصادية ، بعد تخريب بلاد الشام ، التى كانت بمثابة العمود الفقرى وحصن الأمان لمصر(١٣٠) .

تعدى القراصنة على سواحل مصر والشام

أصبحت مصر فى وضع لا تحسد عليه ، فقد فشلت فشلاً ذريعاً فى التصدى لغزوة القبارصة للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، كما فشلت فى صد هجوم التتار على بلاد الشام، الذى أصبح يهدد سلطنة المماليك ، حتى سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م . وهى السنة التى توفى فيها تيمور لنك ، وزاد الطين بلة تعدى القراصنة على السواحل المصرية والشامية، مدركين مدى عجز المماليك عن كبح جماحهم(١٣١) .

وسوف نقتصر هنا على التعرض لتعدى القراصنة ، حتى سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م ، وهى السنة التى استطاع فيها السلطان برسباى فتح قبرص ، ورد اعتبار مصر ، ووضع حدًا لتلك المأساة .

ففى رمضان سنة ٧٧٠هـ / إبريل ١٣٦٨م ، قامت جنوة بمهاجمة أربعة سفن محملة بالبضائع فى الإسكندرية وأخذتهم إلى ميناء فاما جوستا ، كما هاجمت دمياط وأخذت سفينة بما عليها وعادت بها إلى فاما جوستا ، أيضًا ، فى نفس السنة ، وقد استخدمت جنوة فى هجومها سفينتان كانتا ملكًا لبطرس الأول الذى أجرهما لها(١٣٢) .

كذلك قام القبارصة بمهاجمة سواحل الشام فى سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م ، وأخذوا سفينة محملة بالبضائع وأربع سفن فارغة وعادوا بالجميع إلى فاما جوستا(١٣٣) .

وفى سنة ٨١٩هـ / ١٤١٦م ، قام القراصنة الكتلان ، بالهجوم على الإسكندرية، فأحدثوا شغباً مع الحمالين المشتغلين وأجبروا النائب قطلوبغا الخليلى(١٣٤) ، على تسليمهم ثلاثة منهم ، ثم انتهزوا فرصة قدوم مركب فأخذوها بما فيها وكانت هذه المركب ملكًا للتجار المغاربة ، تنقل عليها السلع(١٣٥) . وفى جمادى الآخر/ أغسطس، فى نفس السنة ، قدمت ثلاث من سفنهم إلى الإسكندرية للتفاوض في عقد الصلح ، فسمحت السلطات لمن عليها من التجار بإنزال سلعهم وبيعها وشراء التوابل ؛ فانتهز الكتلان الفرصة وأشعلوا النار فى سفن التجار، ثم اشتبكوا مع قوات الميناء والتجار، فقتلوا منهم عشرين وأخذوا سفينتين وأبحروا بهما إلى رودس(١٣٦) . كما تكرر هجوم الكتلان على الإسكندرية فى شعبان سنة ٨٢٥هـ / أغسطس ١٤٢٢م ، وأخذوا مركبًا فيها بضائع بنحو مائة ألف دينار(١٣٧) .

لم يكن بوسع السلطات المملوكية ، سوى القبض على التجار الفرنج ومصادرة أموالهم ،هذا إجراء تقليدى لن يرجع للتجار بضائعهم وأموالهم ، ولن يرد لمصر

كرامتها ، فقد تشتتت جهود المماليك ما بين هجمات التتار المتتالية على بلاد الشام وبين تعدى القراصنة على السواحل المصرية والشامية ، هذا علاوة على انتشار الأوبئة والفتن والمؤامرات التى أدت إلى سوء أحوال البلاد فى شتى مجالات الحياة ، كما سبق أن ذكرنا[١٣٨] .

من هنا كان تأخر السلطات المصرية على رد اعتبار مصر والثأر لما حدث فى الإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م ، نتيجة غزوة القبارصة التى أتت على كل ما بالمدينة من « صامت وناطق » على حد تعبير ابن حبيب[١٣٩] .

■ ● ■ ● ■

الفصل الرابع

فتح قبرص ورد اعتبار مصر

استمرت حالة الضعف والفوضى وعدم استقرار أمور الحكم فى دولة المماليك، منذ وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م[١٤٠] ، حتى تولى السلطان برسباى الحكم فى سنة (٨٢٥ - ٨٤١هـ / ١٤٢١ - ١٤٣٧م)[١٤١] ، والذى امتازت فترة حكمه بالاستقرار وقلة الاضطرابات ، وذلك على الرغم مما قاساه الناس فى ذلك العهد بسبب سياسة برسباى الاحتكارية ، إذ تروى لنا المصادر المملوكية بأن السلطان برسباى فى أول حكمه ، فاض النيل حتى غمر الأرض بالخيرات ، فكثرت الحبوب ، وشبع الفقراء . وأن برسباى كان ذا حكمة ورفقًا ، وقد تمكن لحسن سياسته وحزمه من إحكام قبضته على البلاد .أكثر من ستة عشر سنة ، بذل فيها قصارى جهده منذ الوهلة الأولى ، لوضع حد لتعدى القراصنة على سواحل مصر والشام ، بل وصل به الأمر إلى إصراره على فتح قبرص للأخذ بالثأر ورد اعتبار مصر ومحو آثار غزوة القبارصة للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م[١٤٢] .

سوء العلاقات بين مصر وقبرص

ساءت العلاقات بين مصر وقبرص بعد غزوة القبارصة للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م ، إلا أن البندقية حفاظًا على مصالحها التجارية فى مصر ، ضغطت على ملك قبرص بطرس الأول ، لعقد الصلح مع مصر ، وجاء رد السلطان شعبان بأنه لن يسمح بالصلح ولا بالتجارة مع البنادقة إلا إذا صفى حسابه أولاً مع

ملك قبرص ، فضاق الأخير ذرعًا وأرسل إلى السلطان شعبان خطابًا يجرحه ويعرض بأصله المملوكى ويتوعده ، ولكن بطرس ما لبث أن قتل فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٩هـ / يناير ١٣٦٩م[١٤٣] .

خلف بطرس الأول ابنه بطرس الثانى (٧٦٩ - ٧٨٤هـ / ١٣٦٩ - ١٣٨٢م) ، قبل أن يبلغ سن الرشد . فتوصى عليه عمه حنا الذى طالما حكم قبرص نائبًا عن أخيه أثناء غياباته الكثيرة ، واستمر حنا فى السياسة العدوانية ، وواصل حملاته العسكرية ، وأعلن صراحة بأنه لن يكف عن السلب والنهب من شواطئ مصر والشام بسبب مماطلة ، السلطان شعبان فى عقد الصلح[١٤٤] .

وبناء على طلب جنوة والبندقية ، أرسل البابا إربان الخامس إلى الوصى حنا يكلفه بإرسال رسل إلى السلطان شعبان لعقد الصلح حتى يتحرر التجار الفرنج من ضيقهم ، وفى الحال أرسل بطرس الثانى ملك قبرص ، وفدًا إلى مصر للمفاوضة ، ويظهر أن السلطان شعبان أراد إنهاء حالة الحرب القائمة التى تعرضت أثناءها الموانى المصرية والشامية لغارات القراصنة من جانب قبرص ورودس ، أو بسبب كساد التجارة المصرية ، أو أن البنادقة والجنوية ألحوا على السلطان شعبان فى الصلح بحجة موت بطرس الأول ، الذى كان السبب فيما حل بالإسكندرية ، وإنه لا يصح إثارة الماضى ، وإن بطرس الثانى مستعد لترضيته ، ودخلت المفاوضات فى مرحلتها الأخيرة ، إذ وصل مصر وفد كبير من قبرص ورودس وجنوة والبندقية فى صفر سنة ٧٧٢هـ / أغسطس ١٣٧٠م ، واشترط السلطان شرطًا أساسيًا وهو إطلاق سراح الأسرى ونقلهم إلى مصر ، وتم الصلح بين الطرفين وعادت التجارة إلى ماكانت عليه ، وأخذت سفن الفرنج ترد إلى الإسكندرية بكثرة[١٤٥] .

لكن ذلك لم يدم ، وغدت موانى قبرص أوكارًا لسفن القراصنة من مختلف الجنسيات ، تجد فيها المؤن والمأوى ، وهكذا بدأت حلقة جديدة فى تاريخ الحركة الصليبية ، بتحويل القوة البحرية التى أوجدتها البابوية لتنفيذ الحصار الاقتصادى

بمنع التجار المسيحيين من التعاون مع دولة المماليك فى مصر والشام ، إلى أعمال النهب والقتل والتخريب ضد الموانى الإسلامية فى البحر المتوسط[١٤٦] .

ولم يكن سلاطين المماليك يملكون وسيلة للمطالبة باستعادة الأسرى والأموال والمتاجر التى تقع فى يد القراصنة ، سوى القبض على التجار الفرنج المقيمين فى الموانى المصرية والشامية ومصادرة أموالهم ، حيث كان المماليك عاجزين تمامًا عن التصدى لغارات القراصنة ، بسبب سوء أحوالهم[١٤٧] .

احتكار برسباى تجارة التوابل

تعرضت سواحل مصر والشام لغارات القراصنة بشكل أضر بالمصالح التجارية، مما دفع السلطات الحاكمة فى مصر إلى التفكير الجدى فى التصدى لتلك الغارات، وإذكاء روح الجهاد ضد الفرنج للقضاء على مراكز القراصنة بالاستيلاء على جزيرتى قبرص ورودس ، وتطهير شرق البحر المتوسط من آخر معاقل الصليبيين ، ومقاومة الأحلاف الصليبية التى ترمى إلى القضاء على ملك المسلمين فى الشرق ، ولكن كيف يتسنى ذلك وخزانة الدولة خاوية ، ولما كانت تجارة التوابل ، هى الوسيلة الوحيدة لحل أزمة السلطنة المالية ، فلقد رأى السلطان برسباى ، أنه ليس من المعقول أن تضع السلطنة حياتها تحت رحمة تجار التوابل[١٤٨] ، حيث كانت الدواوين غير قادرة على صرف مستحقات المماليك[١٤٩] ، وكان الحل هو نزول السلطنة إلى ميدان تجارة التوابل بهدف زيادة مواردها ، للخروج من الأزمة المالية التى شهدتها ، لذلك قرر برسباى استغلال جزء من أموال السلطنة فى تجارة التوابل، فأصدر عدة مراسيم ، جعلته التاجر الوحيد لتجارة التوابل[١٥٠] . وبذلك احتكرها ، ومن هنا اضطر تجار التوابل والأجانب إلى التعامل مع المتجر السلطانى[١٥١] ، ويجب أن نفرق بين اشتراك الدولة فى تجارة التوابل بإصدار القرارات التى تلزم تاجر التوابل ببيع ما معه إلى المتجر بفائدة يرضاها[١٥٢] ، وبين نزول الدولة بأموالها منافسة تجار التوابل ، فهذه مجرد عمليات تجارية تدر الأرباح على السلطنة مما دفعها إلى إنشاء

ما يعرف بالمتجر السلطانى الذى « يبتاع للديوان ما يحتاج من بضائع ويقتضيه طلب الفوائد »[١٥٣] . يضاف إلى الناتج الزراعى فى الديوان الخاص الذى يتولاه ناظر الخاص ، ومهمته تحصيل أموال جهاته وتنميتها «[١٥٤] . وقد عهدت الدولة إلى تجار التوابل بوظيفة ناظر الخاص للاستفادة من خبرتهم فى إدارة المتجر وخاصة فى تجارة التوابل[١٥٥] .

لذلك يجب أن نفرق بين هذه العمليات التجارية للسلطنة التى يراها ابن خلدون « غلط عظيم » « لأن الرعايا متكافئون فى اليسار متقاربون ، ومزاحمة بعضهم بعضًا ينتهى إلى غاية موجودهم أو أقرب ، وإذا رافقهم السلطان فى ذلك وماله أعظم كثيرًا منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه فى شىء من حاجاته ، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد » . وبين الاحتكار الرسمى ، يعنى أن يكون السلطان هو المشترى الوحيد والبائع الوحيد ، ويؤيد ما ذهبنا إليه فى وجوب هذه التفرقة إلى الضرر الذى أصاب تجار التوابل ، بعد تنفيذ سياسة الاحتكار حتى آلت هذه الطائفة إلى زوال . فى حين لم يشعروا بخطر يهدد كيانهم من مشاركة الدولة فى العمليات التجارية[١٥٧] .

أما عن الأسباب التى أوحت لبرسباى اتباع نظام الاحتكار ، فمن الباحثين من يربطها بفساد النظام الإقطاعى فى أواخر الدولة المملوكية البحرية ، وعجزه عن الوفاء بالتزامات الدولة ، بعد أن أهملت شئون الرى والصرف[١٥٨] ، ومنهم من يربطها بالحاجة إلى الأموال لتغطية نفقات الحروب وإعداد الحملات الحربية لفتح قبرص ، أو أن برسباى أغرته المكاسب فتوسع فى احتكار تجارة التوابل ، ومهما كانت الأسباب فإن المراسيم الأولى التى صدرت لتنظيم تجارة التوابل بجدة ، لم تستهدف الاحتكار ، وإنما كان هدفها الحصول على أكبر قدر من الرسوم ، فقد عمل برسباى على تركيز تجارة التوابل بجدة ليحصل العشور من تجار التوابل ، ورغبة فى الزيادة ، أمر بمنع التجار من السفر مباشرة من الحجاز إلى الشام ، دون الحضور إلى القاهرة حتى يعاد تحصيل رسوم جديدة على ما معهم من التوابل

وتهديد من يخالف بالقتل والمصادرة ، فكان التجار يأتون إلى القاهرة مجبرين لتحصل منهم الرسوم[١٥٩] .

وبهذا انصب على مصر وحدها كل ما يرد إلى البحر الأحمر من توابل المحيط الهندى ، لا لكى يحتكره السلطان ، بل ليحصل على رسوم أخرى خلاف ما يحصل فى جدة والطور ثم فى القاهرة ، وتؤخذ الرسوم مرة رابعة ، إذا خرج التجار ببضائعهم إلى الشام[١٦٠] .

وهكذا يظهر من المراسيم الأولى هدف الحصول على أكبر قدر من الرسوم بدليل أن برسباى أعفى تجار التوابل ، أثر شكاياهم من القدوم ببضائعهم من جدة إلى القاهرة فى مقابل دفع ثلاثة دنانير ونصف عن كل حمل ، هذا غير ما يدفعونه من رسوم حسب العادة[١٦١] .

وفى المحرم سنة ٨٢٨هـ/نوفمبر١٤٢٤م ، ألزم برسباى تجار التوابل بالحضور إلى القاهرة ، تحت الحراسة ، وبذلك أحكم السيطرة على تجارة التوابل ثم احتكرها ، ففى غضون ذلك كان المتجر السلطانى يمارس نشاطه التجارى على نطاق واسع منافسًا تجار التوابل[١٦٢] ، فبالإضافة إلى قيام المتجر بشراء التوابل من أسواق جدة[١٦٣] . كان يأتى المتجر المتحصل العينى أيضًا من الرسوم الجمركية من التوابل ، ثم يقوم المتجر ببيع بضائعه إلى التجار الأجانب بالإسكندرية بأسعار السوق المحلية ، والتى أمكنه زيادتها بطريقة غير شرعية ، بأن رسم بزيادة سعر الفلفل المباع على التجار الأجانب من الديوان ، وقد سافروا به فكلف قناصلهم بالوفاء بهذه الزيادة محققًا بذلك الحصول على أكبر ربح يضاف إلى حصيلة الرسوم الجمركية[١٦٤] . ثم بدأ برسباى بتركيز تجارة التوابل فى الأسواق المصرية فقط ، وألزم تجار التوابل بالحضور ببضائعهم إلى القاهرة ، « وحجر على الفلفل أن يشترى لغيره وألا يباع إلا فى الإسكندرية بعد أن يكتفى السلطان »[١٦٥] .

ومن المرجح أن الهدف من هذه المراسيم كان إعطاء المتجر أولوية شراء احتياجاته من الفلفل وأولوية بيعه للتجار الأجانب بالإسكندرية ، واتضحت أهداف

التوسع فى سلطات المتجر فى عملية التحكم فى أسعار البيع بالإسكندرية إذ ألزم التجار الأجانب بشراء الفلفل السلطانى بسعر مائة وعشرين دينارًا للحمل ، بينما كانت قيمته لدى تجار التوابل خمسين دينارًا فى القاهرة ، وثمانين دينارًا فى الإسكندرية ، مما أضر بكل من المتجر السلطانى وتجار التوابل ، فما استطاع المتجر من تصريف الفلفل بهذا السعر الإجبارى ، وما استطاع تجار التوابل التعامل مع التجار الأجانب الذين اضطروا إلى العودة دون أخذ احتياجاتهم[١٦٦] .

ثم ارتفع السعر الإجبارى لحمل الفلفل إلى مائة وثلاثين دينارًا وألزم به التجار الأجانب ، وبعدما استنفذوا ما لدى الديوان ، أرادوا الشراء من تجار التوابل ، محاولين تعويض فرق السعر بالمساومة معهم . وكان لدى تجار التوابل أيضًا رغبة فى تصريف بضائعهم المكدسة ، بسعر أربعة وستين دينارًا لحمل الفلفل ، ولكن الأجانب تمسكوا بتسعة وخمسين دينارًا ، عندئذ تدخل السلطان برسباى مفوتًا الفرصة على التجار الأجانب واشترى الفلفل بالسعر الأخير ، وألزم تجار التوابل « ألا يبيعوا شيئًا من البضائع التى تجلب من الهند كالفلفل ونحوه لأحد من تجار الفرنج . ويكون بيع البهار للسلطان » ، « وهددوا على ذلك بمنعهم من التجارة فيه »[١٦٧] . وهكذا كانت الخطوة الأولى للاحتكار ، تمثلت فى أن السلطان برسباى أصبح هو البائع الوحيد لتجارة التوابل فى الإسكندرية ، بالقضاء على منافسة تجار التوابل وإلزام الأجانب بقبول الشراء بالسعر الذى يحدده ، إلا أننا نتساءل ، لماذا احتكر برسباى بيع التوابل فى الإسكندرية ، قبل احتكار شرائها من جدة ؟ للرد على هذا السؤال ، لابد أن نقر أن نفوذ تجار التوابل فى البحر الأحمر ، كان قويًا ولا يخفى أن كفاحهم هناك من أجل البقاء كان أقوى من كفاحهم فى مصر ، عندما طبقت سياسة الاحتكار فى جدة[١٦٨] .

ثم تم تطبيق الاحتكار فى عمليات الشراء ، عندما صدرت مراسيم إلى الشام والحجاز والإسكندرية « ألا يبيع أحد البهار ولا يشتريه إلا السلطان »[١٦٩] ، وتجددت

المراسيم بالنسبة للفلفل « بأن صار مخصوصًا للسلطان لا يبيعه ولا يشتريه أحد إلا هو بالخصوص »(١٧٠) .

وهذا يعنى أن بداية الاحتكار الرسمى لتجارة التوابل هى بداية تركز عمليات الشراء فى جدة والبيع فى الإسكندرية تطبيقًا للمراسيم السلطانية التى أصدرها برسباى فى ربيع أول سنة ٨٢٨هـ/يناير١٤٢٥م ، بهذا الشأن(١٧١) .

ولم يكتف السلطان برسباى بذلك ، حيث إن حاجته إلى المال كان لا حد لها ، ذلك لأن إعداد الحملات لفتح قبرص كان مكلفًا إلى أبعد حد ، فبدون شفقة ولا رحمة راح يصادر أموال وبضائع تجار التوابل . إلا أن ذلك كان له أثره على تجار التوابل ، فكلما زادت حدة المصادرات ، كلما توقف نشاط التجار لقلة المال معهم(١٧٢) .

وقد تعددت صور المصادرات التى كان من بينها سياسة فرض البضائع على التجار ، حيث كانت الدولة تشترى البضائع بأبخس الأسعار ثم تبيعها لهم بأسعار مرتفعة وتجبرهم على الشراء ، مما أدى إلى ذهاب رؤوس أموالهم وكساد أسواقهم ، وقد دأب السلطان برسباى على عمليات فرض البضائع وألزم التجار بإيراد ثمنها فى الحال ، مما اضطر أغلبهم إلى بيع تلك البضائع بنصف ثمنها حتى يجمعوا المبلغ المطلوب منهم(١٧٣) . ومن ناحية أخرى أثر نظام فرض البضائع على حركة الأسواق وأصابها الكساد ولجأ التجار إلى الهروب وغلق الأسواق(١٧٤) . وكان القائم بعملية فرض البضائع هو ديوان الخاص ، أو المتجر السلطانى(١٧٥) ، وبالتالى كانت عائدات عملية فرض البضائع تذهب إلى المتجر السلطانى الذى كان متشددًا فى جمع الأموال من التجار على حد تعبير الدلجى ، الذى ندد بذلك ووصفه بأنه : « الأيدى الغاصبة الخاطفة التى كانت مسئولة عن التجار »(١٧٦) . كما ذكر ابن دقمان تعرض قيسارية التاجر الكارمى برهان الدين المحلى للغلق بسبب المصادرة ، مما أضر بمصالح تجار التوابل ، وأدى إلى خراب الأسواق(١٧٧) .

وهناك العديد من الأمثلة التى تشير إلى فرض البضائع على تجار التوابل ومصادرتهم فى عهد السلطان برسباى ، إذ كان السلطان يشترى البضائع من التجار فى بداية السنة ثم يفرضها عليهم فى نهايتها بالضعف(١٧٨) ، فقد صادر برسباى التاجر الكارمى نور الدين التبريزى على مبلغ مائة ألف دينار ، بسبب وشاية رجال الدولة وأمر بضرب عنقه(١٧٩) ، كما رمى السلطان برسباى ألف حمل من فلفل المتجر السلطانى على تجار التوابل بسعر مائة دينار للحمل على الرغم من أنه اشتراه منهم بخمسين دينارًا فى بداية السنة(١٨٠) .

وهذا يعنى ببساطة ، أن ثراء تجار التوابل الذى فاق كل وصف ، وتحدثت عنه قصص ألف ليلة وليلة ، كان وراء تعرضهم للمصادرة التى تسببت فى انهيار تجارتهم من ناحية وخلل الاقتصاد المملوكى من ناحية أخرى ، وأنه لولا مصادرات التجار واحتكار برسباى لتجارة التوابل ما تحقق له فتح قبرص ، الذى تكلف الأموال الطائلة لإعداد الحملات الحربية التى حققت هذا الحلم الذى طالما راود السلاطين قبل برسباى(١٨١) .

إصرار برسباى على فتح قبرص :

خرجت السلطنة المملوكية من أزمتها المالية بعد احتكار برسباى تجارة التوابل ، وأصبحت الدواوين قادرة على توفير النفقة لإعداد الحملات لفتح قبرص ، ووضع حد لتعدى القبارصة الذين اتخذوا من قبرص ملجأ ومأوى لهم ، وهذا يعنى أن تجار التوابل بصفة خاصة وعامة الناس بكل طوائفهم ، بصفة عامة ، هم الذين تحملوا عبء إعداد تلك الحملات(١٨٢) .

إلا أننا لا نستطيع أن نرجع بدء التصميم على فتح قبرص إلى السلطان برسباى ، إذ المعروف أن الاستعداد لفتح قبرص قديم يرجع إلى فجر الإسلام ، فقد تم للمسلمين الاستيلاء على قبرص فى سنة ٢٩هـ/٦٤٩م(١٨٣) ، ولم يحتفظوا بها كثيرًا بسبب الصراع القائم مع الدولة البيزنطية التى ما لبثت أن استردتها وأعادتها

إلى ممتلكاتها ، وذلك نظرًا لأهمية جزيرة قبرص الحربية ، ثم استولى عليها ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وهو فى طريقه إلى الشام خلال الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م ، وظلت قبرص طوال العسكر المملوكى تمثل مصدر قلق لدولة المماليك ، لذلك حاول السلطان بيبرس فتحها فى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م ، ولكن محاولته باءت بالفشل(١٨٤) .

وبعد غزوة بطرس الأول للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، جد السلطان الأشرف شعبان فى التفكير فى فتح قبرص ، ذلك أن المصريين لم يغفروا للقبارصة ما فعلوه بالإسكندرية ، ولم ينسوا ما حل بثغرهم وأهله على أيدى القبارصة الذين دمروا مدينة من أعظم مدن الإسلام(١٨٥) . ومن الأدلة على ذلك أن بطرس الأول لم يكد يرحل عن الإسكندرية بعد أن مكث بها ستة أيام ، حتى أمر السلطان شعبان الأمير يلبغا مقدم العساكر ، وهو صاحب الكلمة النافذة فى شئون الدولة وقتذاك ، ببناء المراكب والسفن لفتح قبرص ، فجمع البحارة والنجارين والمقاتلين ، كما أرسل إلى سائر البلاد الشامية يأمر بتسخير كل من يعرف يمسك منشارًا فى قطع الأخشاب وبناء السفن « برسم غزو قبرص »(١٨٦) وظل الأمير يلبغا يجد فى بناء السفن والمراكب الحربية فى موانى مصر والشام ، حتى تم له إعداد مائة وخمسين سفينة « منها طرائد للخيل وشوانٍ للغزو »(١٨٧) . فاستدعى السلطان شعبان ، الرايس إبراهيم التازى الإسكندرى ، وهو من المعروفين بالشجاعة والدراية ، بفنون القتال ضد الفرنج فى البحر - وسأله « تقدر تفتح جزيرة قبرص ؟ » ، قال : « نعم » فقال له السلطان : « بكم غراب ؟ » قال : « بماية غراب » ، فأخبره السلطان أن الغربان جاهزة وأمره أن يسافر بها لفتح قبرص ، فخرج التازى بسفينتين كبيرتين بهما مائة وخمسون مقاتلاً ، وغادر التازى الإسكندرية فى رجب سنة ٧٦٩هـ/ مارس ١٣٦٨م(١٨٨) فاستطاع أن يأسر سفينة بندقية أرسلها إلى الإسكندرية بعد أن حجز معه رجالها من الفرنج ، كما حاول الإغارة على « فاماجوستا » ، ولكن السفن القبرصية تكاثرت عليه فركن إلى الفرار(١٨٩) . وبعد غيبة ثلاثة وعشرين يومًا عاد

إبراهيم التازى إلى الإسكندرية ومعه خمسة وثلاثون أسيرًا من الفرنج بينهم راهب طاعن فى السن وكميات كبيرة من الغنائم ، فاستقبل بالإسكندرية استقبالاً حافلاً[١٩٠] . وبذا شفى التازى قلوب المصريين ونجح فى « بعض أخذ الثأر من الفرنج » ، هذا ما يقوله النويرى المتوفى سنة ٧٤٤هـ/١٣٧٣م[١٩١] ، أى خمسون سنة تقريبًا قبل مشروع برسباى لفتح قبرص ، وهو بلا شك يعبر بقوله هذا عن رغبة جامحة تختلج بها قلوب المصريين ، فغزوة التازى إذًا كانت بعضًا فقط من أخذ الثأر، لأن الثأر لا يتم إلا بالاستيلاء على قبرص وتخريب ميناء من موانيها على الأقل كما فعل القبارصة بالإسكندرية[١٩٢] .

ومما أجج تلك الرغبة الجامحة فى أخذ الثأر أن أعمال القراصنة لم تنقطع، ولم تكن تلك القرصنة من عمل القبارصة فحسب ، بل من مختلف القوميات[١٩٣] .

حقيقة أن تلك الغارات لم تكن بالشىء الجديد ، لكنها فى عصر برسباى اتخذت شكلاً خطيرًا أقلق السلطان برسباى أشد القلق[١٩٤] .

هكذا ظل أهل قبرص « يفسدون فى البحر » ويقطعون الطريق على المراكب الآتية إلى دمياط والإسكندرية[١٩٥] . وكل ذلك بعلم وتشجيع جانوس لوزجبان ملك قبرص (٨٠١-١٣٩٨هـ/٨٣٦-١٤٣٢م) ، ويبدو أن السلطان برسباى أراد بادئ الأمر تسوية الأمور المتعلقة بين مصر وتجار الفرنج وتحسين العلاقات بين مصر وأوروبا حرصًا على المصالح التجارية المتبادلة ، كذلك أراد برسباى اتباع الوسائل السلمية كتأمين للحركة التجارية فى الموانى وفى عرض البحر من غارات القراصنة ، فطلب السلطان قناصل الكتلان والبنادقة والجنوية وقال لهم : « إن ملك قبرص يقوم بحرب عدوانية ضدى بأسطوله ، وحتى الآن أسر ما يقرب من ألف وخمسمائة مصرى ، وقام آباؤهم وبقية الناس فى كل يوم يطلبون منى التدخل لاستعادتهم ، وليس أمامى سوى طريقة واحدة وهى أن أطلب منكم الآن التدخل فى عمل الصلح معه وإنى سوف أقوم بكل ما يطلبه ونعقد الصلح معًا » . وعندما أجاب هؤلاء بأنه لا يمكنهم عمل شىء لمنع أعمال ملك قبرص ، طلب منهم السلطان اختيار شخص

يذهب إلى ملك قبرص ، فذهب المستشار الكتلانى S. Antoune Amobier وصحبه أحد المماليك مع هدايا فخمة لملك قبرص وقد أجاب الملك على هذه السفارة ، بأنه فى حاجة إلى هؤلاء الأسرى لزراعة أرض قبرص بقصب السكر . كما علم السلطان من أحد الأسرى العائدين أن القبارصة يشترون من القراصنة الغنائم ويتسترون عليهم ، فأرسل السلطان برسباى إلى ملك قبرص ينهاه عن ذلك ، فلم يهتم بالأمر واستمر فى إيوائه للقراصنة الذين لم تنقطع غارتهم على سواحل مصر والشام(١٩٦) .

ولم تنجح محاولات برسباى فى عقد الصلح ، بل اعتقد القبارصة أن حرص برسباى على عقد الصلح ، ليس معناه سوى ضعف السلطان وخوفه ، ولذا سخر القبارصة من محاولات برسباى الفاشلة(١٩٧) فغضب برسباى لذلك أشد الغضب ، وطبيعى أن ذلك من شأنه أن يثير حقد السلطان وغضبه ، وهكذا استشاط السلطان غضبًا ، حتى إذا ما كانت سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٤م ، ورد إليه الخبر بأن القراصنة أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب ثغر دمياط فيها بضائع كثيرة وعدد من الناس يزيدون على مائة رجل ، وبأن ملك قبرص جانوس استولى على سفينة محملة بالهدايا ، مرسلة من السلطان برسباى إلى السلطان مراد الثانى(١٩٨) .

هذا التصرف من ملك قبرص كان بمثابة الشة التى فصمت ظهر البعير ، ودفع السلطان برسباى إلى الاستيلاء على أموال التجار الفرنج المقيمين بثغور مصر والشام ومنعهم من العودة إلى بلادهم(١٩٩) .

وهكذا تجمعت الأسباب لدى برسباى ، لفتح قبرص ، وأخذ يعد العدة ، ويتخذ الإجراءات الكفيلة بتأمين الموانى المصرية والشامية . فبدأ بتنظيم وسائل الدفاع ، فأنشأ وظيفة مراقبة السواحل ، وعزز حاميات دمياط ورشيد والإسكندرية ، وبنى عند ميناء الطينة برجًا للمراقبة وجعل به حامية مقيمة ومزودة بالأسلحة ، إذ كان القراصنة يهاجمون ميناء الطينة باستمرار ويقومون بنهب المصريين وخطفهم هناك أثناء مرورهم من قطيا إلى العريش ، وبنى برجًا آخر عند طرابلس عرف باسم برج

السرايا بجوار برج السباع الذى أقامه السلطان برقوق ، كذلك أشرف برسباى بنفسه على بناء السفن الحربية من الأغربة والطرائد بساحل بولاق[٢٠٠] .

وبعد أن اطمأن برسباى على تأمين الموانى وأعد العدة ، أخذ يشن حملاته على قبرص ، وهى ثلاث حملات تحمل الجند النظاميين والكثير من المطوعة من مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام[٢٠١] .

أما عن تفاصيل الحملة الأولى ، فهى لم تبلغ مبلغًا كبيرًا من السفن والرجال ، والأقرب إلى الصواب إنها لم تعد سوى عملية استكشافية غرضها الوقوف على أمر ذلك النفر من الفرنج « الذى كان يتجرم فى البحر »[٢٠٢] .

ففى شوال سنة ٨٢٧هـ/أغسطس ١٤٢٤م ، غادرت بولاق سفينتان كبيرتان بهما ثمانون مملوكًا ، ثم لحقت بهما عند دمياط سفينة أخرى صغيرة فسارت السفن الثلاث إلى بيروت حيث انضمت إليهما سفينة رابعة ، ثم إلى طرابلس حيث أصبح المجموع خمس سفن ، منها ثلاث كبار بكل واحدة مائة وثمانون مجدافًا واثنتان صغيرتان بكل منهما دون المائة ، ومن ثم اتجهت جميع السفن إلى قبرص[٢٠٣] . واشتدت الريح قرب شواطىء الجزيرة ، فتفرقت السفن ولكنها عادت واجتمعت فاتجهت إلى رأس « الياق » جنوبى ليماسول[٢٠٤] حيث أرسى مركب فرنجى مشحون بالبضائع . فلما رأى بحارته السفن الإسلامية فروا تاركين المركب بما فيه للمسلمين فنهبوه وأشعلوا فيه النيران[٢٠٥] . بعد ذلك اتجهت السفن المصرية إلى ليماسول ، فلما علم أهلها بقدوم المسلمين أخرجوا النساء والأطفال من المدينة لئلا يتعرضوا لتنكيلهم[٢٠٦] . وعند ليماسول وجد المسلمون ثلاث سفن معدة للإغارة على بلاد المسلمين ، فأخذوا ما بها وأشعلوا فيها النار[٢٠٧] . ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع القوات القبرصية التى أتت لقتال المسلمين ، وهى مؤلفة من سبعين فارسًا وثلثمائة رجل بقيادة حاكم ليماسول ، ولكن الهزيمة حلت بهم ففروا بعد أن قتل منهم فارس وعدة رجال[٢٠٨] . وبعد ذلك هاجم المسلمون ليماسول ، فاستطاعوا الاستيلاء على جانب واحد منها ، وعندما اتضح لهم أن الجانب الآخر شديد المناعة يطول

حصاره[٢٠٩] ، اكتفوا بنهب كل ما وصلت إليه أيديهم من العسل والسمن والجوخ والصوف وأثاث البيوت وغير ذلك[٢١٠] . ثم أشعل المسلمون النار فى عدة جهات من ليماسول ، وغادروها إلى منطقة كولكيا ، حيث التقوا بسفينتين قادمتين من جورهيجوس على ساحل أرمينية الصغرى ، فأشعلوا النار فى إحداهما وأسروا الأخرى[٢١١] .

وفى شوال ٨٢٧هـ/سبتمبر ١٤٢٤م ، أقلعت السفن الإسلامية من السواحل القبرصية ، فوصلت إلى مصر فى ذى القعدة سنة ٨٢٧هـ/أكتوبر ١٤٢٤م ، وفيها الكثير من الغنائم ، فضلاً عن عدد من الأسرى اختلفت المصادر فى تقديره[٢١٢] . ولما عاد المجاهدون إلى مصر ، قدموا ما غنموه إلى السلطان برسباى ، الذى تصرف فيه طبقًا لأصول الشريعة ، ولو أنه آثر نفسه بمائة وثلاثين قطعة من الجوخ ، باعها للتجار ، ولم يعط المجاهدين من ثمنها شيئًا[٢١٣] .

وقد كانت هذه « الغزوة الصغرى » على حد تعبير العينى[٢١٤] ، على جانب عظيم من الأهمية بالقياس إلى نتائجها ، فالسلطان برسباى ، تحقق من مدى مسئولية قبرص وملكها جانوس عن أعمال القرصنة بعد أن أخبره رجاله بأنهم شاهدوا سفن القراصنة بالجزيرة معدة للإغارة على شواطىء المسلمين ، كما شاهدوا بموانى قبرص كثيرًا من البضائع الإسلامية المنهوبة[٢١٥] . ثم إن هذه الغزوة دلت على مبلغ ضعف قبرص وانحلال أمورها وعجزها عن مقاومة المسلمين ، مما دفع السلطان إلى التفكير جديًا فى فتح قبرص ، وصفوة القول ما قاله العينى ، « إن هذه الغزوة كانت السبب الذى أنتج الغزوتين اللتين حصلتا بعدها »[٢١٦] .

وهكذا يتضح أن الغرض من هذه الغزوة ، كان الاستطلاع والاستكشاف وجس النبض والاطلاع على أخبار قبرص ، وليس الحصول على الغنائم والأسرى .

ولم يشأ السلطان برسباى أن يضيع الوقت فيعطى خصمه فرصة للاستعداد ، فأصدر الأمر بعد رجوع الغزوة الأولى ، لبناء سفن جديدة[٢١٧] ، واستمر العمل يجرى فيها تحت إشرافه ، وأخذ على نفسه زيارة دار الصناعة ببولاق كل يوم تقريبًا

ليتفقد سير العمل[٢١٨] . ويبدو أن برسباى أراد أن يجعل الحرب مع قبرص جهادًا تشترك فيه القوى الإسلامية المجاورة على الأقل ، فأمده حاكم تونس بعدد من السفن[٢١٩] . ومما زاد من حماسة السلطان وتصميمه ، على فتح قبرص ، أنه فى جمادى الآخرة سنة ٨٢٨هـ/مايو ١٤٢٥م ، هاجمت أربع سفن قبرصية مركبًا مشحونًا بالمجاديف المرسلة إلى مصر ، من اللاذقية ، واستولت على المجاديف التى أمر السلطان بصنعها من أجل السفن التى تصنع فى بولاق . ثم قتلت بحارتها وأشعلت النار فيها[٢٢٠] .

ولما اكتملت عمارة السفن ، أخذ برسباى يعد الجند ودعا الناس للجهاد ، وعندئذ تطوع كثيرون[٢٢١] ، هذا عدا ستمائة محارب جهزهم السلطان وأنفق عليهم، وثلاثمائة رجل جهزهم الأمراء على نفقتهم[٢٢٢] ، وسارت الخيول وعدتها نحو ثلاثمائة فرس - برًا إلى طرابلس ليحملها المجاهدون معهم من هناك[٢٢٣] .

وفى شعبان سنة ٨٢٨هـ / يونيو ١٤٢٥م عين السلطان برسباى على المجاهدين، الأمير جرباش الكريمى ، وبدأت السفن فى الرحيل يومًا بعد يوم ، ونزل السلطان إلى ساحل بولاق وشاهدها وقد شحنت بالرجال والمقاتلين[٢٢٤] .

وكثرت الإشاعات وقتذاك بحركة الفرنج وتأهبهم ، فأرسل برسباى المماليك والأمراء لحراسة الثغور[٢٢٥] ، كما أرسل إلى طرابلس وبيروت والإسكندرية ودمياط يأمر بتركيز الجند بالسواحل حفظًا لها من الفرنج[٢٢٦] . والواقع أن تلك الإشاعات لم تخل من الحقيقة ، وكان برسباى محقًا فى اتخاذ الأهبة والاحتياطات اللازمة للدفاع ، لأن أخبار الاستعدادات التى قام بها السلطان برسباى بلغت مسامع الملك جانوس[٢٢٧] ، فرأى أن يقف على حقيقة الأمر ويفسد على برسباى خطته ، فأرسل سفينتين للإغارة على شواطئ سوريا « وإفساد ما يقدرون عليه »[٢٢٨] ، كما أرسل عدة سفن أخرى لمراقبة الشواطئ المصرية ومنع خروج الحملة إلى البحر[٢٢٩] . أما السفينتان اللتان قصدتا بلاد الشام ، فأخذتا فى التنقل من جهة إلى أخرى دون أن تستطيع إحداهما أو كلاهما ، تحقيق شىء بسبب يقظة الحراسة المملوكية فى كل

الجهات[٢٣٠] . ثم نفذ ما بالسفينتين من ماء فقصدتا نهر الكلب » ، وهناك رآهما جند المسلمين، فكمنوا لهما وأطلق القبارصة مدفعًا ليتأكدوا من عدم وجود عدو[٢٣١]، فلما لم يخرج إليهم أحد اطمأنوا ودخلت إحدى السفينتين النهر حيث أطبق عليها المسلمون وأحرقوها بعد أن أسروا رجالها على حين لاذت السفينة الأخرى بالفرار[٢٣٢] . وأما السفن القبرصية التى قصدت شواطئ مصر ، فقد وقفت عند مصب دمياط لمنع سفن المسلمين من دخول البحر المتوسط ، ولكنها ولت الأدبار وفرّت بلا قتال حين شهدت السفن المصرية مقبلة من الإسكندرية[٢٣٣] .

وفى رمضان سنة ٨٢٨هـ / يوليو ١٤٢٥م ، غادرت الحملة الشواطئ المصرية ، فاتجهت إلى بيروت حيث انضمت إليها السفن التى أمر السلطان بصنعها فى بلاد الشام ، وكان صالح بن يحيى المؤرخ ، صاحب تاريخ بيروت ، مقدمًا على إحدى هذه السفن[٢٣٤] . وقبل أن تبرح السفن الإسلامية بيروت رأى الأمير جرباش مقدم الحملة أن يعطى جانوس فرصة أخيرة للصلح ، فأرسل إليه رسولاً يطلب منه الإذعان والدخول فى طاعة السلطان ، وأمر ذلك الرسول أن يعود بالرد إلى طرابلس ، ولهذا الغرض غادر الرسول بيروت إلى قبرص ، على حين قصدت الحملة طرابلس ، حيث مكثت ثمانية أيام فى الاستعداد النهائى للحرب إذا لم يأتِ الرسول بنبأ الصلح[٢٣٥] . وأبطأ الرسول فى العودة فاستقر الرأى على الإبحار إلى قبرص بالحملة كلها ، بعد أن أصبحت مكونة من نحو أربعين سفينة ، ولم تكد السفن تغادر طرابلس ، حتى لحق بها الرسول قادمًا من قبرص معلنًا رفض الملك جانوس للصلح[٢٣٦] .

ثم وصلت السفن الإسلامية ميناء قرباص Korbass ، على ساحل قبرص الشمالى الشرقى[٢٣٧] ، ومنه تحركت جنوبًا حتى رست بالقرب من فاما جوستا ، حيث نزل المشاه وأكثر الفرسان إلى البر . ولما علم حاكم فاما جوستا الجنوى بوصول المسلمين أسرع بإرسال رسول من عنده يطلب منهم الأمان ويخبرهم بدخوله فى طاعتهم ، ويقول إنه مملوك للسلطان وأن المدينة مدينته ، فأعطاه المسلمون أمانًا

بعد أن رفع الراية السلطانية على قلعة المدينة[٢٣٨] . ودلهم حاكم فاما جوستا ، بعد ذلك على عورات الجزيرة وأرشدهم إلى نواحى الضعف فيها ومبلغ استعداد ملك قبرص للقائهم[٢٣٩] ، وخلال الأيام الأربعة التى مكثها المسلمون فى فاما جوستا ، شنوا الغارات على الضياع القريبة وأوسعوها نهبًا وأسرًا وتحريقًا[٢٤٠] ، وقبل أن يبرحوا المكان ، التقى بعض كشافهم بجيش قبرص على رأسه أخو الملك جانوس ، فهاجمه المسلمون وقتلوا منه خمسة عشر فارسًا وجرحوا أكثر من خمسين ، على حين لم يقتل من المسلمين سوى مملوكين[٢٤١] .

بعد ذلك أقلعت السفن إلى الملاحة ، تاركة نحوًا من أربعمائة من الجنود المشاه يسيرون فى البر بحذاء السفن لمراقبة العدو ، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ، ثم لحقوا بالسفن صباح اليوم التالى ، عند مكان يسمى رأس العجوز ومعهم ثلاثون أسيراً[٢٤٢] .

على أن السفن الإسلامية سرعان ما فوجئت بأسطول قبرصى مكون من ثلاثة عشرة سفينة[٢٤٣] . فتظاهرت السفن القبرصية بالفرار والهزيمة من غير حرب لتستدرج السفن الإسلامية إلى عرض البحر ، ولكن المسلمين لم تجز عليهم تلك الخدعة فأرسلوا سفنهم على ساحل الملاحة[٢٤٤] .

وكانت خطة جانوس ملك قبرص ترمى إلى توزيع قوى المسلمين بين البر والبحر ، فبينما أرسل أسطوله ليهاجم السفن الإسلامية ، بعث أخاه على رأس جيش عدته ثلاثمائة فارس لمناوشة المسلمين وليحول دون نزولهم إلى البر[٢٤٥] . فلما وجد المسلمون أنفسهم أمام أعدائهم برًا وبحرًا ، استعجلوا أمرهم وكان الأمر « أعجل من ذلك » على حد تعبير صالح بن يحيى[٢٤٦] ، فبادروا بإنزال ما يقرب من ألف رجل ، إلى البر كلهم مشاه لصعوبة إنزال الخيل فى سرعة . وأسرع هؤلاء إلى قتال خيالة الفرنج فقتلوا منهم كثيرين وقطعوا رؤوسهم وعلقوها على أسنة الرماح حتى يراها زملاؤهم بالسفن فيطمئنوا وتقوى هممهم . وبذلك استطاع مشاه المسلمين أن ينزلوا الهزيمة بفرسان الفرنج[٢٤٧] . ثم تقدمت السفن الإسلامية إلى

عرض البحر ، وتبادل الفريقان إطلاق المدافع حتى اضطر القبارصة إلى الفرار على حين كان المسلمون أحرص من أن يغريهم النصر فيطاردوهم فى عرض البحر تاركين بقية الجند فى البر[٢٤٨] . وهكذا يتضح أن فى هذا دليلاً على أبلغ ما وصلت إليه العبقرية القتالية فى العصور الوسطى ، من قبل المسلمين الذين حرصوا على تأمين قواتهم فى البر داخل قبرص نفسها .

وبعد هذه الانتصارات السريعة الموفقة ، أمر الأمير جرباش بإنزال الخيل إلى البر ، فشن المسلمون الغارات على الضياع وأخذوا يحرقون القرى ويقتلون ويأسرون أهلها حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى وامتلأت أيديهم بالغنائم[٢٤٩] . واستطاع المسلمون أن يقبضوا على أمير الملاحة واسمه عين الغزال ، فقتلوه انتقاماً لما أنزله بالكثيرين من أسرى المسلمين[٢٥٠] . ثم استولوا على مخزن كبير للذخيرة[٢٥١] .

بعد ذلك توجه المسلمون إلى ليماسول فوصلوها فى رمضان سنة ٨٢٨هـ / أغسطس ١٤٢٥م ، وهناك نزل إلى البر ما يقرب من مائة وخمسين من المجاهدين ومعهم بعض المماليك السلطانية . فلما أصبح الصباح وصلُّوا صلاة العيد ، بذلوا كل جهدهم فى الاستيلاء على حصن المدينة ، الذى لم يوجد له نظير فى الجزيرة كلها من حيث قوة المناعة ومتانة التحصين[٢٥٢] ، واستطاع المسلمون بعد جهد عنيف الاستيلاء عليه فى نفس اليوم ، « وهو الأمر الذى لم يكن فى حسبانهم » فأسروا وقتلوا كثيرين ، ثم رفعوا الراية السلطانية عليه بعد أن هدموا وأحرقوا جزءًا كبيرًا منه[٢٥٣] . وفى تلك الأثناء وصل إلى معسكر المسلمين خمسة من الأسرى ، استطاعوا الفرار من العدو ، فأخبروا الأمير جرباش بأن صاحب البندقية أرسل نجدة إلى الملك جانوس ، كما أرسل إليه ثلاثة وأربعين صندوقاً بها سيوف وخوذ ... عدا سبعمائة رمح وكمية كبيرة من القلاع والسروج وغير ذلك[٢٥٤] .

فلما سمع المسلمون ذلك بدأوا يفكرون فى العودة ، ورأى الأمير جرباش أن « الأمر قد أخذ حده »[٢٥٥] ، لاسيما بعد أن بلغه الشىء الكثير عن استعدادات الملك جانوس[٢٥٦] . كذلك خشى جرباش ضجر العساكر الإسلامية لطول إقامتهم[٢٥٧] ، فجمع رجاله وسفنه وترك ليماسول ، ولكن لا إلى مصر مباشرة ، بل إلى جهة الباف، وهى إحدى الموانى القبرصية بغية الإغارة عليها ، غير أن الرياح لم تساعده على تحقيق ذلك الغرض ، فأبحرت السفن إلى مصر[٢٥٨] .

وظل السلطان برسباى طوال تلك المدة يترقب الحملة ، وفى أواخر رمضان سنة ٨٢٨هـ/أغسطس ١٤٢٥م ، وصلته رسالة كتبها الأمير جرباش إلى نائب طرابلس ليبلغها مبشرًا إياه بالفتح . ففرح السلطان برسباى أشد الفرح ودقت البشائر بالقلعة وقرىء الكتاب الوارد بالنصر فى جامع عمرو وزينت القاهرة ، وأرسلت البشائر إلى الإسكندرية والبحيرة والوجه القبلى[٢٥٩] .

وبينما الناس مستبشرون ، وقد عمهم الفرح وشملهم السرور إذا بالأخبار تأتى بعد أربعة أيام من ورود البشارة بقدوم المسلمين إلى الطينة[٢٦٠] . فوقع الخبر على الجميع وقع الدهشة ، وكثرت الإشاعات والأقاويل وأخذ الجميع يتساءلون عن السبب فى رجوع الحملة بهذه السرعة وبدون سابق تنبيه[٢٦١] ، ولكن سرعان ما وضحت الحقيقة ، وعلم الجميع أن المجاهدين رجعوا رجوع الظافر المنتصر . ودخلت الجيوش الظافرة القاهرة فى شوال/سبتمبر من نفس السنة وباتوا ليلتهم بساحل بولاق حتى أصبح الصباح فتوجهوا إلى القلعة وبصحبتهم ما يزيد عن الألف أسير[٢٦٢] ، على حين حملت الغنائم على مائة وسبعين حمالاً وأربعين بغلاً وعشرة جمال ، ما بين صناديق وحديد وآلات حربية وأوان[٢٦٣] . وكان ذلك يومًا من أبهج الأيام التى بالقاهرة ، إذ خرج جميع الناس لمشاهدة الموكب الرائع الذى لم يسبق لهم أن شهدوا مثله ، فازدحمت الحوانيت والمنازل بالمتفرجين ، واكتظت الطرقات والشوارع بالمشاهدين[٢٦٤] .

ثم أمر السلطان برسباى ببيع الأسرى على أن يراعى عند البيع عدم التفرقة بين الأولاد وآبائهم ولا بين القريب وقريبه[٢٦٥] ، وفى هذا برهان واضح على عظمة التسامح والتسامى والترفع عن الحقد والضغينة ، وأن ما فعله المسلمون فى قبرص ، كان من منطلق رد الاعتبار والأخذ بالثأر ، لما كان يحدث للمسلمين من جراء غارات القراصنة ، ولما حدث للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، وقد تولى الأمير إينال الشتمانى أمر بيع الأسرى ، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم من أمراء وتجار وعوام على شرائهم[٢٦٦] . وقومت بقية الأصناف من جوخ وصوف وقماش ، وأنفق السلطان ثمنها على المجاهدين فأعطى لطائفة منهم سبعة دنانير ونصف لكل جندى ولطائفة أخرى ثلاثة دنانير ونصف[٢٦٧] .

وهكذا انتقم المصريين لما حل بالإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، فإذا كان القبارصة أعملوا السيف فى كل من صادفوه بالإسكندرية حتى تركوا المدينة مفروشة بجثث الضحايا على حد تعبير النويرى ، فإن جملة من قتلهم المصريين من القبارصة فى حملتهم هذه بلغت خمسة آلاف[٢٦٨] . وإذا كان بطرس الأول ، أسر عددًا كبيرًا من أهل الإسكندرية[٢٦٩] . فإن المصريين أسروا فى هذه الحملة أكثر من ألف قبرصى[٢٧٠] . وإذا قرر النويرى أن سفن بطرس الأول امتلأت بالغنائم من الإسكندرية ، حتى أخذ الفرنج يلقون ببعض ما تحمله السفن تسهيلاً لإبحارها[٢٧١] ، فإن ابن تغرى بردى ، قرر كذلك ، أن كثيرًا من المسلمين فى حملتهم هذه ألقى ما بأيديه على الأرض لكثرة المغانم[٢٧٢] .

ولم يكد يمضى على غزوة القبارصة للإسكندرية ستون عامًا حتى انقلبت الأوضاع ودارت الدوائر فانتقم المصريون لأنفسهم أشد الانتقام ، ولكن السلطان برسباى ، لم يقنع بذلك ، لأنه لم يقصد إلى إرساله حملة لمجرد الغزو والسلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم ، ولو كان برسباى ، يبغى مجرد الإغارة للسلب والنهب ثم الفرار لانطبق عليه ما قاله النويرى ، عن بطرس الأول « إنه فعل فعل اللصوص لا الملوك ، لأن الملوك إذا ملكوا بلدًا صمدوا

فيه ودافعوا عنه » (٢٧٣) . والحقيقة أن برسباى لم يكن يود أن تعود جيوشه من قبرص بعد غزوة الاستطلاع والاستكشاف الأولى ، قبل أن تخضع الجزيرة نهائيًا لمصر(٢٧٤) .

ولذا فإن برسباى ، على الرغم من عودة رجاله ظافرين ، لم يكن راضيًا ، لذلك قرر إرسال حملة ثالثة إلى قبرص لفتحها وإخضاعها لمصر فى العام التالى ، خاصة بعد أن وصل إلى سمع برسباى ، أن جانوس ملك قبرص ، راسل ملوك الفرنج ليتغلب بهم على المسلمين ، وأن ملك الكيتلان أرسل ابن أخيه على رأس عدة سفن لمساعدة ملك قبرص فيما عسى يقوم به من حرب دفاعية أو هجومية على مصر(٢٧٥) ، والواقع أن جانوس استنجد بملوك أوروبا ولكنه لم يحصل على معونة تذكر ، ذلك أن أوان الحماسة الصليبية كان قد مضى وأخذت الدول الأوروبية تتفرغ لمشاكلها العديدة ، بل ذهبت البندقية إلى أبعد من ذلك حين تنحت عن مساعدة جانوس ملك قبرص ومنعت رجالها من التطوع فى صفوف القبارصة(٢٧٦) . ولم يستطع حنا الثامن ملك فرنسا تقديم أى معونة مالية إلى ملك قبرص ، بل اكتفى بالتوسط فى الصلح وأرسل رسولاً إلى السلطان برسباى بهدية « ليشفع فى أهل قبرص » ، فلم يلتفت السلطان لشفاعته وأخذ الهدية(٢٧٧) .

وبذلك لم يحصل جانوس على مساعدة تذكر اللهم سوى من فرسان رودس الذين أمدوه ببعض سفن ورجال وذخيرة . كما أمده زعيم القبائل التركمانية على بك قرمان ، ببعض رجال حاربوا فى صفوفه(٢٧٨) .

وعندما سمع السلطان برسباى باستنجاد الملك جانوس بالدول الأوروبية وبأنه يجد فى بناء المراكب والسفن بجزيرة قبرص ، خشى أن تكون نيته متجهة إلى محاكاة سلفه بطرس الأول ، وتكرار مأساة الإسكندرية . ولم يكن برسباى مبالغًا فى ظنه هذا ، إذ من غرائب الأمور أن هذه الفكرة طرأت فعلاً لجانوس فى ذلك الوقت(٢٧٩). وأسرع السلطان من جهته فى بناء السفن وجد فى ذلك وبذل الأموال

الطائلة[٢٨٠] ، كما أرسل إلى البلاد الشامية يأمر بعمارة السفن فانشئت فى بيروت سفينتان كبيرتان ، وكانت الأوامر تصل إلى بيروت تطلب الإسراع فى إنجازهما وإحضارهما إلى ثغر دمياط[٢٨١] .

وفى شعبان سنة ٨٢٩هـ/يوليو ١٤٢٦م ، اجتمعت جموع المجاهدين فى بولاق ، فعرضهم السلطان ووزع عليهم الأموال فى يوم حافل تجلت فيه الحماسة الدينية ، واشتدت رغبة الناس فى الجهاد حتى اضطر السلطان إلى الاعتذار إلى كثيرين بأن السفن لم يعد فيها متسع لهم[٢٨٢] .

وقد عين السلطان عدداً كبيراً من الأفراد للذهاب مع الحملة ، وعهد بقيادة الجيوش البرية إلى الأمير تغرى بردى المحمودى ، وبقيادة القوات البحرية إلى الأمير إينال الچكمى ، وحدد اختصاصات كل منهما « حتى لا يعارض أحدهما الآخر »[٢٨٣] .

وقبل أن تتحرك الحملة من بولاق ، انضم إليها عدد كبير من المجاهدين . جاءوا من دمشق وصفد وغزة وطرابلس وغيرها من بلاد الشام ، لينالوا شرف هذا الفتح[٢٨٤] ، ولم يقدر السلطان على ردهم ، ثم أخذ الجميع يتوجهون إلى جهة الإسكندرية على دفعات[٢٨٥] ، فكان يوم خروجهم من ساحل بولاق فى شعبان سنة ٨٢٩هـ/يوليو ١٤٢٦م ، يوماً مشهوداً تجمع فيه الناس من مختلف النواحى والجهات لمشاهدتهم ، وازدحمت البيوت بالمتفرجين[٢٨٦] .

واتجهت الحملة أولاً نحو رشيد ، لتنضم إليها خمس سفن كانت راسية هناك ، ولما وصل جميع المجاهدون إلى الإسكندرية ، تم إعداد السفن وتزويدها بالمياه العذبة وغيرها من الضروريات ، وأقلعت الحملة من الإسكندرية وعدتها أكثر من مائة سفينة تحمل نحواً من خمسة آلاف ، منهم ألف من مماليك السلطان ، ومن مماليك الأمراء المصريين نحو ألف آخر والباقى من الجند والمتطوعين[٢٨٧] .

وهذا يعنى ببساطة أن جميع طوائف الناس فى مصر والشام ، اشتركت فى هذه الحملة رغبة فى الجهاد والتصميم على فتح قبرص ، ورد اعتبار مصر لما حدث فى الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م[٢٨٨] .

ولكن لم تكد الحملة تبرح الإسكندرية حتى فوجئت برياح قوية جعلت السفن تصطدم بعضها ببعض ، فانكسر منها أربع وغرق عشرة أنفس ، ومائة فرس[٢٨٩] ، وعندما بلغ ذلك الخبر مسامع السلطان استولى عليه القلق « بحيث إن القلعة ضاقت عليه »[٢٩٠] وبلغ من تخوفه وقلقه أنه كاد يؤجل الحملة إلى العام التالى ، ولكنه عاد وأرسل أحد أمرائه ليقف على حقيقة الأمر ويأخذ رأى أمراء الحملة فى السفر ، ويخبر أصحاب المراكب التى كسرت أنهم مخيرون بين الرحيل إلى قبرص أو العودة إلى مصر . وعاد ذلك الأمير إلى السلطان وأخبره أن ما حدث بالمراكب يسهل ترميمه ، وأن الأمراء مجمعون على السفر والفتح ، وعندئذ هدأ السلطان واطمأن[٢٩١] . ولكن حدث بعد أن أصلحت السفن المعطوبة وبدأت الحملة سيرها ، أن هاجمتها خارج الإسكندرية بعض السفن القبرصية التى أرسلها جانوس ملك قبرص ، لتقطع الطريق على المجاهدين ، فترامى الفريقان فى عرض البحر بالنشاب ، حتى ركن القبارصة إلى الفرار بعد أن قتل من المجاهدين عشرة رجال[٢٩٢] .

ثم بلغت الحملة قبرص ، فرست السفن عند لنديا ، على بعد عدة أميال من ليماسول[٢٩٣] . وفى الحال نزلت القوات البرية ، حيث خربت خيامها ، على حين بقيت القوات البحرية فى السفن على أتم استعداد لمواجهة أى هجوم بحرى[٢٩٤] .

واختار المجاهدون ألا يضيعوا الوقت فأسرعت فصيلة منهم إلى مهاجمة ليماسول ، حيث وجدوا حصن المدينة المنيع الذى دمروه وأحرقوه فى العام السابق ، قد حصن من جديد وشحن بالرجال وحفر حوله خندق عميق[٢٩٥] . على أن ذلك لم يزد المجاهدين إلا إصرارًا وعنادًا فأحاطوا به من كل جهة ، ونصبوا السلالم

واستطاعوا تسلق جدار البرج بفضل شجاعة الأمير قراقوش « وهو من الفرسان المعدودين » .

وعندئذ دب الفزع فى قلوب القبارصة ففروا تاركين خلفهم قدور القار الذى غلوه ليصبوه على المجاهدين[٢٩٦] ، الذين استولوا على القلعة ورفعوا عليها الراية السلطانية[٢٩٧] . ثم أوسعوا مدينة ليماسول نهبًا وهدمًا وإحراقًا[٢٩٨] ، وكان لنبأ استيلاء المجاهدين على ليماسول أثر سيء جدًا فى نفوس القبارصة عامة والملك جانوس خاصة[٢٩٩] . وفى تلك الأثناء دخلت ميناء ليماسول سفينة قبرصية مستعدة للقتال ، فأسرع الأمير تغرى بردى على رأس سفينتين لمطاردتها ، فولت السفينة القبرصية الأدبار والمجاهدين يراقبونها ويتبعونها عن كثب حتى رأوها ترسو وتنزل بعض رجالها عند موضع قريب ، فانطلق فرسان المسلمين إليهم ، وقتلوا منهم خمسة علقوا رؤوسهم على جدار قلعة ليماسول[٣٠٠] .

وبعد أن قضى المجاهدون فى ليماسول ستة أيام « قتلوا فيها كثيرًا من الفرنج[٣٠١] . أخذوا يستعدون للزحف برًا لمنازلة ملك قبرص فى الميدان ، إذ سمعوا من بعض البنادقة أنه على أهبة الاستعداد للقائهم فى خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف رجل[٣٠٢] . وهذا يعنى أن عدد ما جمعه جانوس لمواجهة المجاهدين ، حوالى اثنى عشر ألف فى حين أن قوات المجاهدين ، كانت حوالى خمسة آلاف فقط ، من هنا كانت الملحمة المصرية فى قبرص .

والواقع أن جانوس جمع ما استطاع جمعه من القوة ورباط الخيل وخرج قاصدًا خيروكيتا Kherokita الواقعة فى الشمال الشرقى من ليماسول ، وعسكر فى سهل متسع استعدادًا للقاء المجاهدين[٣٠٣] الذين قرروا ، قبل أن يبرحوا ليماسول ، أن يعطو جانوس فرصة نهائية للصلح ، فأرسلوا إليه يقترحون المفاوضة ويعرضون عليه أن يأتى إليهم بنفسه حتى يتعهد أمامهم بالتخلى عن مساعدة القراصنة وتشجيعهم على الإغارة على بلاد المسلمين فى المستقبل ، على أن يتعهدوا له من جانبهم بمغادرة

الجزيرة فورًا[٣٠٤] . لكن جانوس « أخذته حمية الجاهلية » فقتل الرسول الذى حمل إليه تلك المقترحات ، وأخذ يعرض قواته ويعد نفسه للقتال[٣٠٥] .

لم يبق أمام المجاهدين بعد ذلك سوى القتال ، فأخذوا يتأهبون للمعركة الفاصلة المنتظرة . ويظهر أن النية اتجهت أول الأمر إلى سير القوات البرية صوب الملاحة ، على حين تظل السفن راسية فى ميناء ليماسول ، لكن الأمير تغرى بردى المحمودى ، لم يوافق على الفصل بين القوات البرية والبحرية على تلك الصورة ، إذ رأى أن بقاء السفن الإسلامية فى ليماسول يعرضها لهجوم الأسطول القبرصى فى غيبة الجيش ، وأنه إذا انكسرت السفن الإسلامية يصبح الجيش الإسلامى محصورًا فى الجزيرة[٣٠٦] . وهذا دليل واضح لما كان عليه المسلمين من فهم واعٍ لفن القتال فى الدفاع والهجوم فى تلك الفترة من تاريخهم . ثم استقر الرأى على أن يسير الأمير تغرى بردى بالجيش برًا وأن يسير الأمير إينال الجكمى بالسفن بحرًا على أن يكون اجتماع الفريقين بميناء الملاحة[٣٠٧] . ولا شك فى أن الخطة التى ضمنت دوام القرب والاتصال بين الجيش والأسطول ، « كانت من أكبر المصالح » ، على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى[٣٠٨] .

أما القوات البرية فسارت نحو الملاحة فى غير نظام أو أهبة للقتال ، ظنًا أن القوات القبرصية بعيدة تفصلها عنهم مسيرة أيام ، وكان الوقت صيفًا والحرارة شديدة والشهر رمضان / يوليو والمسلمون صيام ، فعانى الجند ألوان المشقات فى سيرهم وامتلأت معداتهم الخاوية بالنقمة على القبارصة ، حتى غدوا يتمنون لقاءهم فى سرعة[٣٠٩] . ثم لم يطل بهم السير حتى تحققت تمنياتهم إذا التقوا بطلائع الجيش القبرصى وعدتها نحو ثلثمائة فارس وجمع كبير من المشاة ، فلم يستطيع القبارصة الثبات وولوا على أعقابهم مدبرين[٣١٠] . ووصلت الأخبار إلى جانوس بأن المجاهدين أصبحو قاب قوسين أو أدنى من معسكره فى خيروكيتا ، فقسم جيشه إلى وحدات بعضها مائة جندى والبعض الآخر خمسون جنديًا لتنظيم الاشتباك مع المجاهدين[٣١١] . ولكن جيش جانوس كان مؤلفًا من جند حديثى العهد

بشئون الحرب والنظام[٣١٢] . فرفض بعضهم إطاعة أوامر رؤسائهم جهلاً بنظم الحرب وأعلنوا أنهم لا يسمعون إلا أوامر الملك وحده[٣١٣] .

أما المماليك فلجأوا فى خطتهم إلى محاصرة الجيش القبرصى ، فاتجه جزء منهم إلى الناحية الشرقية لإتمام الحصار ، على حين ظهرت بقية المجاهدين فوق التلال التى تشرف على السهل الواسع ، حيث عسكر جانوس[٣١٤] . ثم تقدم المماليك فى سرعة نحو خصمهم ، الذى جمع إليه فضلاً عن القبارصة عددًا كبيرًا من الكتيلان والروادسة والتركمان الذين أرسلهم على بك قرمان ، نجدة لجانوس ، حتى قدر بعض المؤرخين ذلك العدد بعشرة آلاف نفس[٣١٥] . ولكن الكثرة لم تفت فى عضد المسلمين الصائمين ، فحملوا على عدوهم حملة ولوا أمامها الأدبار[٣١٦] . ودهش المماليك عندما شاهدوا ذلك الجمع على كثرته يتراجع فى سرعة ، وظنوا أن الأمر خدعة وتطبيق لخطة مرسومة ، فأخذوا يتقدمون فى حذر شديد[٣١٧] . حتى إذا تأكدوا أن القبارصة ينهزمون حقيقة لا خدعة ، اشتدوا فى القتال ، فحمى وطيس المعركة حتى نهاية اليوم ، وظل السيف يعمل فى صفوف القبارصة « وأسنة الرماح تطعن فى أعضائهم ، فصارت كثرتهم قلة وقوتهم ضعفًا »[٣١٨] .

ورأى جانوس ما حل بجيشه ، وإن رجاله فى إدبار ، فحاول الهرب ، فلم يتمكن[٣١٩] . لأنه جرح فى ثلاثة مواضع[٣٢٠] . فارتبك وسقط عن فرسه وأركبه أصحابه فكبا به الفرس مرة أخرى ، ورآه بعض المماليك ، فهجموا عليه يريدون قتله دون أن يعلموا من هو فصاح جانوس بالعربية « أنا الملك »[٣٢١] . فأسره المجاهدون ووضعوه فى حراسة الأمير تغرى بردى المحمودى[٣٢٢] .

أما القتلى من القبارصة فى هذه الموقعة « فيستحى من ذكرهم لكثرتهم » وقدر بعض الثقات الذين شهدوا الموقعة من أولها إلى آخرها عدد القتلى بأكثر من ألفى قتيل من الفرنج[٣٢٣] ، على حين قدر آخرون ذلك العدد بستة آلاف ، وممن وقع فى يد المجاهدين فى تلك الواقعة شقيق جانوس ، فقتلوه[٣٢٤] . ثم وجد الجند جثة

الرسول المصرى الذى ذهب من عند الأمير تغرى بردى لمفاوضة جانوس فى الصلح على باب خيروكيتا فأنزلوها ودفنوها[٣٢٥] .

وعندما جن الليل بات المجاهدون على أهبة الاستعداد[٣٢٦] فلما أصبح الصباح شنوا الغارات على الجهات المجاورة فأوسعوها نهبًا وسلبًا ، وصعد بعض الجند على جبل الصليب ، حيث أشعلوا النار فى الكنيسة[٣٢٧] وأخيرًا اتجه الجند نحو الملاحة للاتصال بالسفن حسب الاتفاق ، فزفوا إلى زملائهم بشرى الظفر المبين[٣٢٨] .

غير أن الأخبار ظلت ترد على المجاهدين ، وهم بالملاحة ، بأن لملك قبرص أخًا غير الأخ المقتول ، وأن ذلك الأخ الآخر - وهو أسقف نيقوسيا - عاصمة الجزيرة ، جمع أشتات الجند للأخذ بالثأر . لذلك اعتزم المجاهدون القضاء على ذلك الخطر الجديد فى أوائله ، فسار الأمير تغرى بردى على رأس جنده إلى نيقوسيا على حين ظل الأمير إينال الچكمى على رأس السفن بالملاحة ، « لحفظ جانب البحر »[٣٢٩] . ولم تكد القوات البرية تسير نحو نيقوسيا حتى ظهرت طلائع الأسطول القبرصى على مقربة من الملاحة[٣٣٠] . وكانت الخطة التى رسمها الملك جانوس منذ رفض المفاوضة فى الصلح هى أن يهاجم الأسطول القبرصى السفن الإسلامية فى الوقت الذى يشتبك هو مع الجيوش المملوكية برًا حتى يقع المجاهدون بين نارين ، ولكن الأسطول القبرصى تأخر عن الظهور فى الوقت المناسب وإلى ذلك التأخر يعزو مكاريوس هزيمة جانوس فى خيروكيتا[٣٣١] .

وكان الأسطول القبرصى مكونًا من خمس عشرة سفينة[٣٣٢] . فأرسل الأمير إينال الچكمى إلى الأمير تغردى بردى المحمودى يخبره بظهور الطلائع القبرصية حتى يعود لمساعدته ، وعندئذ بعث تغرى بردى معظم من معه من المشاه والأمراء وهو آمن من ناحية القبارصة ، لانهيار مقاومتهم بعد أسر الملك واكتفى هو بستين فارسًا زحف بهم على نيقوسيا[٣٣٣] . وكانت المعركة البحرية التى نشبت أخيرًا بين الفريقين عنيفة وطويلة ، إذ يظهر أن السفن القبرصية لم تعلم بما حل بالقوات

البرية من هزيمة ولم يصلها خبر وقوع الملك جانوس فى أسر المسلمين ، فثبتت فى القتال وحاربت فى عزم وإصرار إلى صباح اليوم التالى ١٥ رمضان سنة ٨٢٩هـ / ١١ يوليو ١٤٢٦م ، أما المجاهدون فقد أبلوا فى تلك المعركة بلاء حسنًا إذ أمطرو سفن القبارصة وابلاً من سهامهم حتى انتهى الأمر بأسر إحدى السفن القبرصية وقتل جميع رجالها على حين فرت بقية السفن إلى عرض البحر بعد أن قتل من رجالها ما يزيد على مائة وسبعين نفسًا[٣٣٤] . ويقول مكاريوس إن سبب تراجع السفن القبرصية هو أن المجاهدين حملوا جانوس على كتابة خطاب إلى قائد الأسطول يأمره بالرجوع فرجع[٣٣٥] .

أما الأمير تغرى بردى فسار على رأس فرسانه إلى نيقوسيا ومر الفرسان فى طريقهم على بوتاميا فأحرقوها[٣٣٦] ، كما ظلوا طوال سيرهم يقتلون ويأسرون وينهبون[٣٣٧] ، وسمع شقيق الملك بتقدم المجاهدين نحو العاصمة ففر إلى كيرينا ، بعد أن أخذ معه حنا ابن الملك جانوس وابنته وما استطاع جمعه من الأموال والتحف الملكية[٣٣٨] . كذلك فر كثير من سكان العاصمة إلى كيرينا وعلى حين حمل من بقى من نسائهم وأطفالهم واحتموا بفندق البنادقة بالعاصمة علمًا منهم بأن البندقية فى حالة سلم مع المماليك وأنها سوف تمنعهم من دخول المدينة ، ولكن للأسف « علق الرداء الجميل بالشوك » على حد تعبير مكاريوس ، لأن البنادقة كانوا أول من شجع المماليك على دخول العاصمة القبرصية[٣٣٩] .

ودخل المجاهدون عاصمة قبرص دخول الفاتح الظافر ، فنهبوا جانبًا منها كما نهبوا قصر الملك[٣٤٠] . وفى يوم الجمعة ، صلى المسلمون ، صلاة الجمعة فى كنيسة المدينة بعد أن أذنوا للصلاة فى أبراجها[٣٤١] . ونزل الأمير تغرى بردى بقصر الملك حيث تقدم إليه أكابر المدينة وأساقفها ورهبانها وقسيسوها ومعهم الإنجيل طالبين الأمان ، فأمنهم ، وأمر بأن ينادى فى أنحاء البلاد بالأمان وبأن الجزيرة « صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباى »[٣٤٢] . وشدد الأمير تغرى بردى فى طلب الأموال ، فاستدعى إليه موظفى الدواوين وسألهم عن أحوال الجزيرة[٣٤٣] ، وماليتها . واتفق أعيان نيقوسيا وتجارها على أن يجمعوا مالاً للسلطان نظير الأمان

الذى منحوه ، فقدموا إلى الأمير تغرى بردى بعض الأموال والتزموا بدفع الباقى ، هذا فضلاً عما استولى عليه من خزانة الدولة فيما يبدو[٣٤٤] . وصادف بعد قليل أن وصل الأمير تغرى بردى برمش ومعه بعض مماليك السلطان وكانوا لم يسمعوا بالأمان الذى سبق أن أعطاه الأمير تغرى بردى المحمودى للأهالى ، فشرعوا فى النهب والأسر والقتل وأشعلوا النار فى قصر الملك حتى أن ابن تغرى بردى المحمودى لم ينج إلا بصعوبة شديدة[٣٤٥] ، واعتبر المعاصرون من المسلمين ذلك العمل غلطة كبرى ، لأن التصرف على ذلك الوجه « بعد الأمان غير جائز وليس شرطًا من شرائط الغزاه » على حد تعبير المؤرخ العينى[٣٤٦] .

ولم يبق بعد ذلك كله سوى العودة إلى مصر فأخلى المجاهدون نيقوسيا بعد أن مكثوا فيها يومين وليلة[٣٤٧] . وشرعوا فى العودة إلى الملاحة حيث كانت بقية الحملة. وهناك أحصيت أعداد الأسرى فبلغت ثلاثة آلاف وسبعمائة نفس[٣٤٨] .

غير أن الآراء اختلفت فى موضوع العودة إلى مصر ، فرأى البعض إرسال رسول إلى السلطان يخبره بالفتح ويستشيره فى أمر العودة على أن يظل المجاهدون بقبرص ، حتى وصول رد السلطان ، ورأى البعض الآخر أن المقام بالجزيرة طال وأن العودة مباشرة أمر ضرورى ، وإذا رغب السلطان فى إرسال حملة رابعة لاستئصال بقية الفرنج فلا مانع من العودة من جديد[٣٤٩] . وتغلب الرأى الثانى فتجهز المجاهدون للرحيل بعد أن مكثوا بالملاحة سبعة أيام « أراحوا فيها أبدانهم وأقاموا شعائر الإسلام من الصلاة والأذان ... »[٣٥٠] . وفى تلك الأثناء أرسل أهل فاماجوستا يطلبون الأمان من المسلمين فأمنوهم[٣٥١] .

وسبقت أخبار الفتح سفن الغزاة إلى المياه المصرية ، إذ أرسل المسلمون أحد الأمراء ليبشر السلطان بالفتح ويعلمه أن الغزاة فى طريقهم إلى مصر وبصحبتهم ملك قبرص مأسورًا[٣٥٢] . وكاد برسباى يطير من عظم السرور حتى رآه المؤرخ ابن تغرى بردى يبكى من شدة الفرح ، فبكى الناس فرحًا كذلك[٣٥٣] . وفى الحال دقت

البشائر بقلعة الجبل ونودى بزينة القاهرة وأسواقها ومنازلها فزينت ، واستمرت الزينة حتى وقت دخول الغزاة[٣٥٤] . أما أهل القاهرة فأصبحوا كأنهم فى يوم عيد ، ونظم الشعراء القصائد العديدة فى التغنى بظفر المسلمين[٣٥٥] . ثم وصل الغزاة إلى الشواطىء المصرية فى ٢٩ رمضان سنة ٨٢٩/١١ أغسطس ١٤٢٦م ، بعضهم إلى ثغر الإسكندرية وبعضهم إلى ثغر دمياط[٣٥٦] . وأمر السلطان بخروج أربعمائة مملوك وأربعة من أمراء الطبلخانات للقاء الفاتحين والترحيب بهم واستقبالهم وتوفير أسباب الراحة لهم وتشديد الحراسة على سفنهم بعد ترحيلهم مخافة أن تدهمها سفن الفرنج[٣٥٧] .

وفى أول أيام عيد الفطر ، وصل الفاتحون إلى ساحل بولاق ، ١ شوال سنة ٨٢٩هـ/١٣ أغسطس ١٤٢٦م ، حتى إذا ما اكتمل عددهم ، ساروا إلى القلعة فى موكب حافل، وأقبل الناس من كل ناحية لمشاهدة ذلك اليوم الموعود ، فلم يبق بالقاهرة وضواحيها شخص غائب عن طريق الموكب حتى سد الناس الشوارع والحارات[٣٥٨] . ووافق ذلك اليوم وفاء النيل ستة عشر ذراعًا فزاد سرور الناس وفرحهم[٣٥٩] . وهذا يعنى أن الله تعالى كان يبارك هذا الفتح .

وشق موكب الغزاة وسط القاهرة فى نظام باهر « يذهل العقل »[٣٦٠] ، فسار فرسان الغزاة فى المقدمة وتبعهم المشاه ، ووراء هؤلاء أحمال الغنائم على رؤوس الحمالين وظهور البغال والحمير وبينها تاج الملك جانوس وأعلامه منكسة . ومن بعد هؤلاء سار الرجال من الأسرى ثم السبى من النساء والصغار ، وفى ذيل الأسرى سار الملك جانوس ممتطيًا « بغلاً أعرجًا » وهو مقيد بالقيود الحديدية ومعه اثنان من خواصه وحوله كبار أمراء الحملة ، الأمير إينال الچكمى عن يمينه والأمير تغرى بردى المحمودى عن يساره والأمير قرامراد خجا الشعبانى أمامه[٣٦١] . وعند باب القلعة أتزل جانوس عن مطيته فكشف رأسه وخر على الأرض فقبلها ، ثم سار فى قيوده حيث جلس السلطان فى مجمع حافل شمل شريف مكه وأكابر الأمراء والسفراء ومنهم رسل ابن عثمان ورسل صاحب تونس ورسل أمير التركمان ،

ومماليك نواب البلاد الشامية ، وكان اتفاق حضور هذا الجمع من الرسل ، « من المستغرب »[٣٦٢] . وكأن ذلك كان من تدبير القدر ، ليشهد هذا الجمع إذلال ملك قبرص وعظمة نصر المسلمين الفاتحين .

ووصل جانوس إلى حضرة السلطان ، فأمر بتقبيل الأرض ، فقبلها ثم سقط مغشيًا عليه ، حتى إذا ما أفاق قبل الأرض مرة أخرى ، ثم تنحى جانوس جانبًا ليستعرض السلطان الغنائم والأسرى[٣٦٣] . وحضر المؤرخ العينى ذلك المشهد ، فرأى الأسرى وهم يسيرون أمام السلطان طائفة بعد طائفة ، فضلاً عن الغنائم من سائر الأصناف[٣٦٤] ، وبعد أن فرغ السلطان من ذلك كله أمر بإحضار جانوس إليه ، مرة أخرى فأتى وانحنى وقبل الأرض وغشى عليه مرة ثانية[٣٦٥] . ثم أفاق جانوس فأمر السلطان بإيقافه أمامه بعض ساعة حتى يتحقق من شكله ، وبعد ذلك أمر بإيداعه فى أحد أبراج القلعة[٣٦٦] .

ثم خلع برسباى الخلع السنية على الأمراء الذين اشتركوا فى الحملة ، كما أمر فى اليوم التالى ببيع الأسرى والغنائم وتوزيع أثمانها على الغزاة ففرق بعض السبى على الأمراء ، وجمع التجار لشراء الثياب والأقمشة والأثاث والأوانى وسائر الأمتعة . وفى ذلك اليوم بطلت الأسواق حتى يتم بيع الغنائم[٣٦٧] .

أما جانوس فقد ظل فى برج القلعة حتى أرسل إليه السلطان فى طلب الفدية . فأجاب قائلاً : « مالى إلا روحى وهى بيدكم » ، « وأنا رجل أسير لا أملك الدرهم الفرد ، من أين تصل يدى إلى مال أعطيه لكم ؟ » . فغضب السلطان لذلك الجواب ، وأرسل إليه يهدده بالقتل إذا لم يبادر إلى دفع الفداء[٣٦٨] . وهو يجيب بمثل ما أجاب به أولاً ، فاستدعاه السلطان إلى حضرته أثناء توزيع بعض الأسرى فلما شهد الأسرى ملكهم على تلك الحال صرخوا بأجمعهم ووضعوا التراب على رؤوسهم[٣٦٩] . وأخذ السلطان يفاوض جانوس فى أمر فديته ، وهدده بالقتل من جديد ، ولكن جانوس لم يجب بأكثر مما أجاب به أولاً[٣٧٠] .

وحضر خصيصًا من الإسكندرية جماعة من قناصل الفرنج فالتزموا عن الملك بدفع الفدية للسلطان ولكن دون أن يحددوا مبلغًا معينًا[٣٧١] . وقبل السلطان وساطة القناصل فأمر بإعادة ملك قبرص إلى محبسه ، وأرسل إليه بدلتين ، كما أمر بتعيين مقدار من اللحم والطيور كل يوم لطعامه ، هذا عدا خمسمائة درهم ينفق منها على بقية حوائجه[٣٧٢] . وسمح له السلطان بالاجتماع بمن يختاره من الفرنج وبأن يقوم فى خدمته جماعة من القبارصة[٣٧٣] . وظلت الرسل تتردد بينه وبين السلطان للاتفاق على تحديد مبلغ الفدية إذ صمم السلطان على خمسمائة ألف دينار[٣٧٤] . فلم تزل الرسل والتراجمة تتردد بين الفريقين حتى قنع السلطان أخيرًا بمبلغ مائتى ألف دينار يدفع منها جانوس مائة ألف عاجلاً على أن يرسل النصف الباقى بعد عودته ، إلى بلاده[٣٧٥] . وشرط السلطان أن يكون جانوس نائبًا عنه فى قبرص ، وأن يتعهد بدفع جزية سنوية مقدارها عشرون ألف دينار[٣٧٦] . ولكى يستطيع جانوس تأدية المبلغ المتفق عليه عاجلاً من الفدية ، وافق السلطان على إرسال موسى سوار إلى قبرص لجمع المال اللازم ، وهو قائد من قشتالة دخل خدمة جانوس وأسر معه ، فذهب موسى إلى قبرص وقابل أسقف نيقوسيا ، شقيق الملك فى ذلك الصدد ، وقرر الأسقف أن يرسل رسلاً من القبارصة إلى ملوك الغرب لطلب المساهمة فى مبلغ الفدية المطلوبة . وعاد أولئك الرسل بما استطاعوا جمعه من المال ، فرجع موسى سوار إلى مصر ومعه ثلثمائة ألف دوكات وصحبته بعض رجال المملكة القبرصية[٣٧٧] . وعندما تسلم السلطان برسباى المبلغ المتفق عليه أفرج عن جانوس ، وخلع عليه وأركبه فرسًا بسرج ذهب . فنزل جانوس من سجنه بالقلعة إلى القاهرة حيث أعدت له دار يقيم بها[٣٧٨] ، وعكف جانوس منذئذ على الخروج من داره صحبة الأمير تاج متولى القاهرة لزيارة المتنزهات والكنائس والمعابد[٣٧٩] ، على حين ترددت لزيارته جموع النصارى والفرنج والقناصل[٣٨٠] . ثم استأذن جانوس السلطان برسباى فى الرحيل فأذن له وخلع عليه خلعة السفر ، فسافر إلى الإسكندرية صحبة مندوبى السلطان . وفى الإسكندرية جمع تجار الفرنج ، وطلب منهم قرضًا ليوزع منه على حاشية السلطان فأقرضوه مبلغًا كبيرًا من المال ، ورأى

نائب الإسكندرية أقبغا التمرازى أن يعطى جانوس درسًا أخيرًا ، قبل سفره إلى قبرص ، فعرض أمامه جند الإسكندرية وهم نحو ألفين وخمسمائة جندى ، مما ترك أكبر الأثر فى نفسه[٣٨١] .

وأخيرًا غادر جانوس الإسكندرية ، وصحبته سفراء رودس ، وبعض القبارصة الذين حضروا خصيصًا لمرافقته ، بعد أن دفع الثمن غاليًا ، لقاء ما اقترفه سلفه بطرس الأول فى الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، فوصل قبرص فى جمادى الآخرة سنة ٨٣٠هـ/ مارس ١٤٢٧م[٣٨٢] ، ليجد الجزيرة فى أشد ألوان الفوضى والاضطراب نتيجة لما انتابها من فتن وثورات[٣٨٣] .

هكذا أخذ المصريون ثأرهم كاملاً ، مما حل بهم أثناء غزوة القبارصة للإسكندرية فى سنة ٦٦٧هـ/١٣٦٥م ، هذا العمل الذى وصفه المؤرخون بأنه عمل من أعمال الجهاد والفتح ، وهو أقرب إلى الصواب مزيج من الجهاد والثأر مؤيدًا بالفتح[٣٨٤] .

ولم يطل عمر جانوس الذى رجع إلى بلاده مكسور الجناح ، إذ مات فى شوال سنة ٨٣٥هـ/يونية ١٤٣٢م ، بعد مرض شديد ألزمه الفراش ما يقرب من عام حسرة وألمًا لما حل به وبجيشه وبجزيرته[٣٨٥] . وظل جانوس حتى وفاته محافظًا على عهده للسلطان برسباى ، وظلت قبرص « من جملة بلاد السلطان »[٣٨٦] . وتطلبت تلك التبعية من ملوك قبرص واجبات ، تعهد جانوس بأدائها ، وحافظ على كلمته ، فأرسل إلى السلطان بعد أشهر من وصوله إلى قبرص يحذره أن الكتلان ينوون الإغارة على الإسكندرية ، فاتخذ برسباى أهبته وفشلت إغارة الكتلان[٣٨٧] ، ثم حرص على دفع الجزية السنوية وتوابعها للسلطان ، فأرسل إلى القاهرة ذهبًا قيمته خمسون ألف دينار ، فضربت دنانير أشرفية بالقلعة تحت إشراف السلطان[٣٨٨] .

وفى سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٧م ، أرسل جانوس الجزية وهى عبارة عن ثمانية عشر ألف ثوب من الأقمشة منها ثمانمائة ثوب صوفًا حملت إلى دمشق حيث بيعت[٣٨٩] .

وقـد ظل جـانوس على ولائه هذا للسلطان برسـبـاى ، إلى أن خلفـه ابنه حنا الثانى (٨٣٦-٨٦٣هـ/١٤٣٢-١٤٥٨م) ، فأرسل برسباى إلى قبرص بعثة عدتها ستون مملوكًا على رأسـهم بعض الأمـراء ومـعـهم خلعـة الولاية للملك الجـديد وتعليـمـات للمطالبـة بالمتـأخـر على أبيـه من الجـزية وهو أربعـة وعـشـرون ألف دينار[٣٩٠] . فاستقبلهم الملك الجديد استقبالاً طيبًا ، وأغدق عليهم الهدايا ، وحلف لهم أمام القساوسة على الطاعة للسلطان ، كما أعطاهم سبعمائة ثوب صوف قيمتها عشرة آلاف دينار مما تأخر على أبيه[٣٩١] . وسر برسباى سرورًا عظيمًا بعودة البعثة بتلك الأخبار والهدايا . إذ انقطع دابر الإشاعات التى ملأت القاهرة بأن ملك قبرص الجديد خرج عن طاعة السلطان ومنع الجزية[٣٩٢] .

وظل الملك حنا الثانى يدفع الجـزية للسلطان برسبـاى ، رغم اخـتـلال أحـوال بلاده وانحـلال أمرها وضعف مواردها ، فضـلاً عن مهاجمة الجـراد لها فى صيف سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ، والذى تسـبب فى انتـشـار الوباء بالجـزيرة ومـوت أناس كثيرين[٣٩٣] .

ولكى يسـجل برسـبـاى نصـره ، أمـر بأن توضع خـوذة الملك جـانوس على باب مدرسـته الواقـعـة بسوق الوراقين لتكون ذكرى وعـبـرة لمن تسـول له نفسـه المسـاس بمصر وأهلها[٣٩٤] .

وبذلك انهارت القلعة التى اتخذها الغرب الأوربى قاعدة لتهديد المسلمين فى الشرق الأدنى ، كما استطاعت مصر أن تحطم الحصار الذى فرضه الغرب عليها ، وأصبحت أوهام الصليبيين ما هى إلا إرهاصات أحلام[٣٩٥] .

وعقب نجاح المصريين فى فتح قبرص ، أحس الفرسـان الاسبتارية فى رودس بالخطر ، فأسـرعوا بتقديم الهدايا للسلطان برسباى وعـرضوا عليه عقد معاهدة صـداقـة وعـدم اعـتـداء ، إلا أن ذلك لم ينس السلطان بـرسـبـاى مـوقف رودس والاسبتارية من المسلمين ، ولو طال به الأجل لقام فعلاً بفتح تلك الجزيرة[٣٩٦] .

خاتمة القول ، أن السلطان برسباى ، استطاع بفتحه لجزيرة قبرص أن يضرب مثلاً لمن يأتى من بعده فى كيفية حماية البلاد من خطر القواعد البحرية التى ظلت بأيدى الصليبيين فى شرق البحر المتوسط ، لذلك كانت الخطوة الطبيعية أمام السلطان جقمق بعد أن استقرت له الأمور هى العمل على غزو رودس[٢٩٧] .

■●■●■

الخاتمة :

اجتازت مصر فترة عصيبة من تاريخها السياسى من عدم استقرار أمور الحكم واضطراب أحوالها وذلك منذ وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م ، حتى عصر السلطان الأشرف برسباى الذى تولى الحكم فى سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م ، فقد استطاع برسباى بحسن سياسته وحزمه القضاء على الاضطرابات السياسية وإحكام قبضته على أمور الحكم لأكثر من ستة عشر عامًا ، استطاع خلالها فتح قبرص ورد اعتبار مصر فى سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م .

وقد كان فتح برسباى لقبرص نصرًا عزيزًا لدولة المماليك فى مصر والشام والحجاز ، وبذلك أخذ المسلمون ثأرهم كاملاً من قبرص وملكها وشعبها وجيشها ، وهذا بعد أن أصبحت قبرص من الأملاك المصرية وملك قبرص نائبًا تابعًا لسلطنة المماليك فى مصر ، وذلك بعد أن تعهد جانوس نائب قبرص بعدم إيواء القراصنة ، ودفع الجزية السنوية والفدية المتفق عليها .

كل ذلك أضفى على السلطان برسباى وعلى حكمه أهمية كبرى ، إلا أنه لا يمكن أن نتخذ من تمكن برسباى من القضاء على الاضطرابات السياسية وإحكام قبضته على أمور الحكم بيد من حديد والهدوء الشديد والاستقرار ، دليلاً على سعادة الشعب المصرى ، إذ الواقع أن الناس عانت الكثير فى عهده بسبب سياسة الاحتكار والمصادرات ، الأمر الذى جعل برسباى يموت غير مأسوف عليه فى سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م ، رغم ما حققه من فتح مبين .

ولكن كيف تسنى لبرسباى ذلك الفتح وخزانة الدولة خاوية ، لقد كشفت هذه الدراسة أن احتكار برسباى لتجارة التوابل ، كان الوسيلة الوحيدة لحل أزمة السلطنة المالية ، لكى يستطيع تجهيز حملاته على قبرص ، والتى تكلفت الكثير من الأموال ، وهذا يعنى ، أن هذا الفتح ، جاء على حساب طائفة تجار التوابل التى آلت إلى الزوال بعد تطبيق سياسة برسباى الاحتكارية ، والتى هددت كيانهم ، ناهيك عن المصادرات التى تعرض لها أولئك التجار ، فتسببت فى انهيار تجارتهم ، ذلك أن تجار التوابل المصريين هم الذين دفعوا ثمن هذا الفتح من ثرواتهم وأنفسهم ، وقد كان هذا الفتح إيذانًا بنهاية أكبر طائفة تجارية فى مصر فى تلك الفترة ، فبدونهم ما تحقق لبرسباى فتح قبرص .

كما تمخض عن هذه الدراسة ، أن كل المصريين من بحارة ونجارين وحدادين وبنائين ومجاهدين ومتطوعين وأصحاب مراكب وهبوا سفنهم لهذا الفتح الذى وحد بين المسلمين والأقباط .

ودعا السلطان للجهاد ، فجاءه المتطوعون من دمشق وسوريا وصفد وغزة وطرابلس ، أولئك المتطوعون الذين قاموا بنشر وقطع الأشجار وإرسالها إلى مصر لبناء السفن ، كذلك أرسل حاكم تونس ، عددًا من السفن ، وهذا يعنى أن المسلمين فى الشرق والغرب ساهموا فى إحراز هذا النصر ، ذلك أن السفن التى كانت تخرج من مصر والسفن التى كانت تخرج من بلاد الشام كانت تلتقى فى عرض البحر قبل التوجه إلى قبرص ، ناهيك عن أن السلطان برسباى كان قد اعتذر لبعض المجاهدين بسبب عدم وجود متسع لهم فى السفن ، ولقد اجتمع هذا الحشد تحت قيادة سلطان مصر الأشرف برسباى .

كذلك بينت الدراسة أن سلاطين المماليك فى كل حملاتهم البحرية لم يخرجوا على رأس حملاتهم ، بعكس حملاتهم وحروبهم البرية التى كان معظمها يتولى قيادتها السلاطين بأنفسهم . ففى نفس الوقت الذى خرج فيه السلطان برسباى لفتح أرمينية ، لم يخرج على رأس حملاته على قبرص ، والأمر هنا لا يحتاج

إلى تفسير ، ذلك لأن المماليك كانوا فرسانًا وليس لهم خبرة كافية بشئون البحر وهذا يعنى أن هذا النصر دعمه المجاهدون الذين شدوا من أزر المماليك إلا أن ذلك لا يقلل من شأنهم ، فقد كانوا على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى ، داوية الإسلام .

وقد كشفت هذه الدراسة ، أنه خلال فترة الحروب الصليبية زمن سلاطين المماليك ، وفى نفس الوقت الذى وقع فيه جانوس ملك قبرص فى الأسر ، وقع أيضًا ابن عمه الملك ليو السادس ملك أرمينية فى الأسر فى سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م ، وكان هذا إيذانًا بنهاية تلك الحروب الصليبية وتدعيمًا للملحمة المصرية فى البر والبحر .

وقد ساعدت هذه الدراسة على أن نفرق بين مسميات حملات برسباى على قبرص . وذلك بعد أن اختلف على تسميتها بعض المؤرخين ، فمنهم من أطلق عليها حملة ، وآخرون أطلقوا عليها غزوة ، والبعض الآخر سماها فتحًا ، فمن خلال هذه الدراسة يمكن أن نطلق على الأولى حملة ، حيث كان الهدف منها الاستكشاف والاستطلاع لجس نبض العدو ومعرفة عورات الجزيرة ومدى قوتها وحصانتها ، أما الثانية ، فمن الأجدى أن نطلق عليها غزوة على حد تعبير المؤرخ العينى ، الذى ذكر أنها استهدفت الغزو السريع الخاطف والسلب والنهب وإنزال الرعب فى نفوس القبارصة ، وأن ما فعله المصريون بقبرص فى هذه الغزوة يفوق بكثير ما فعله بطرس الأول بالإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، فقد أخذ المصريون ثأرهم كاملاً من قبرص وملكها وشعبها وجيشها .

أما الثالثة وإن صح التعبير فتسمى فتحًا ، فقد خرجت فى أسطول ضخم وخاضت معارك حامية ، أسفرت عن أسر الملك جانوس ملك قبرص وإحضاره إلى القاهرة ، وتعهده بدفع الفدية والجزية المتفق عليها وأن يكون نائبًا عن السلطان برسباى فى قبرص ، وعدم إيواء القراصنة ، ناهيك عن أن المسلمين أقاموا شعائر

الإسلام من الصلاة والآذان فى كنيسة « نيقوسيا » عاصمة قبرص ، وطلب أكابر المدينة وأساقفها ورهبانها وقسيسوها ومعهم الأناجيل ، الأمان ، فأمنهم المصريين ، « ونادوا فى أنحاء البلاد بالأمان وبأن الجزيرة ، صارت من جملة بلاد السلطان الأشرف برسباى » .

وهذا يعنى ببساطة أن هذا الفتح غفر لبرسباى زلاته بسبب سياسته الاحتكارية ، وجعل منه بطلاً غازيًا فاتحًا ، على الرغم من أن مؤرخى عصره لم ينصفوه ، فكم من رجال كانوا صناعًا للتاريخ ولكن التاريخ جار عليهم ، لذلك يجب علينا أن نكون منصفين لنعطى كل ذى حق حقه ، حقًا إنه بدون معاناة المصريين ومشاركتهم الفعالة ، ما تحقق هذا الفتح ، إلا أنه لا يمكن أن ننكر عظمة برسباى وقيادته الحكيمة وإصراره على فتح قبرص ، هذا السلطان الذى حقق حلم سلفه من سلاطين المماليك فى مصر .

خلاصة القول ، هذا الفتح أيده الله سبحانه وتعالى ، فقد كان يوم عودة المجاهدين ، هو أول أيام عيد الفطر الذى وافق وفاء النيل الذى بلغت زيادته حوالى ستة عشر ذراعًا ، وقد كان عدد الفاتحين حوالى خمسة آلاف من بينهم ألفان من المماليك أطلق عليهم فى المصادر أسماء عديدة منها الجند ، المجاهدون ، المسلمون ، الفرسان ، الغزاة ، المقاتلون ، المماليك ، انصهرت جميعها فى بوتقة المصريين . فى حين كانت قوات القبارصة والفرنج حوالى اثنى عشر ألفًا ، إلا أن الفاتحين أظهروا عبقرية فى فن القتال ، حتى قيل إن المشاة كانت تقاتل الفرسان ، فصدق قول الله تعالى فى سورة الأنفال ، الآية (٦٦) ، ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . كذلك كان من « المستغرب » على حد تعبير ابن حجر والمقريزى ، كان ذلك اليوم اتفاق حضور شريف مكه ورسل بنى عثمان ورسل صاحب تونس ورسل أمير التركمان ومماليك ونواب البلاد الشامية وأكابر الأمراء والسفراء ، ليشاهدوا ، موكب إذلال جانوس

ملك قبرص ، وهو يقبل الأرض بين يدى السلطان الأشرف برسباى وعظمة نصر المسلمين .

وهكذا فقد جنى السلطان برسباى ومن جاء بعده من سلاطين المماليك أضعاف المبالغ التى أنفقت على فتح قبرص ، فقد دفع جانوس فدية لا بأس بها ، هذا بالإضافة إلى الجزية التى تعهد بدفعها ، هو ومن جاء بعده من ملوك قبرص .

■ ● ■ ● ■

الحواشى

(١) المقريزى ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، نشر ، مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، جـ٢ ، ق٤ ، ص٤٤٢ . سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص١٢١ ؛ مصر فى العصور الوسطى ، من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ؛ Wiet , Gaston , L' Egypte arabe , histaire de la nation egyptienne , Paris , 1937 , pp. 499-510 .

(٢) النويري السكندرى ، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية ، مخطوط ، بدار الكتب ، رقم ٤٤٩ت ، جـ١ ، ورقة ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ أ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ .

ابن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ٢ ، ص١١٢ .

(٤) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٣٨٣ أ .

(٥) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(٦) Darrage , A , L' Egypt sous le regn de Barasbay , Damas , 1961.

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها ، الإسكندرية ، ١٩٦٦ .

(٨) حسن حبشى ، هجوم القبارصة على الإسكندرية ، مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ، مجلد ، ١٥ ، ١٩٦٩ .

(٩) سهير محمد إبراهيم ، حملة بطرس الأول على الإسكندرية ، رسالة ماجستير - كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٨ .

(١٠) Makhiras , L , Recital concerning the Sweet Land of Cypras , Edit , by R,M, Dawkins , I , II , Oxfard , 1922 .

(١١) أحمد عبد الرازق أحمد ، نواب الإسكندرية في كتاب « الضوء اللامع » ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الأول القاهرة ، ١٩٨٢م . . Abd ar - Reziq Ahmed ,
Les governours d' Alexandria au temps des Mamluks , Annales , Islamo logiques , V-VIII , le Caire , 1928 , pp. 123 - 169 .

(١٢) أحمد عبد الكريم سليمان ، تيمورلنك ودولة المماليك الچراكسة ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

(١٣) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تَاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

(١٤) Makhiras , L , Recital concerning the Sweet Land of Cypras , Edit , by R,M, Dawkins , I , II , Oxfard , 1922 .

(١٥) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده ، تحقيق ، بربارة شيفر ، فيسبادن ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢٢ ، سعيدى عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٢٢ ؛
Wiet , G, L' Egypt , pp. 494-495 .

(١٦) ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ، ١٨٩٣-١٨٩٥م ، بول كاله ، محمد مصطفى، القاهرة ، ١٩٦٠ ,١٩٦٣ ، جـ١ ، ص ٢١٤ ؛ محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، القاهرة ، ١٩٤٦ ,١٩٦٩ ، ص ٤٧ ؛
Poliok, (A.N), le caractere colonial del'etat Momlouk dans ses rapports avec la Hord d'or, R,EI, annee, 1935,p.246.

(١٧) قاسم عبده قاسم ، دراسات ، ص ٤٧ ؛ Lone. Pool, Stanley, AHistory of Egypt in the Middle Ages, London, 1901, pp. 325,326.

(١٨) ابن أيبك الدوادارى ، الدرر الفاخر فى سيرة الناصر ، تحقيق ، هانس روبرت رويمر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ؛ سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص٤٩١ ، ٤٩٢ .

(١٩) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٢١ ؛ مصر في العصور الوسطى ، ص ٤٩٢ ؛
Wiet , G, L' Egypt , pp. 499-510 .

(٢٠) ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنية ، تحقيق ، محمد محمد أمين ، القاهرة، ١٩٧٦-١٩٨٦ ، جـ٣ ، ص ١٩ ؛ سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص٤٩١ ؛ قاسم عبده قاسم ، دراسات ، ص ١٧ .

(٢١) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٢٢ .

Wiet , G, L' Egypt , pp. 499-510 .

(٢٢) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص٣٠.

(٢٣) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٩٣٠-١٩٧٢، جـ١١، ص٧.

(٢٤) عن تلك الغزوة ، انظر :

G, Machaut, La Parise d' Alexandria chronique du roi Pierre, Ter de lusignan, Geneve, 1877; Pakahle, Diekatas Trophe des mittalater Lichen Alexandria Me'lange Mas P´ero, III, L'orient Islamique, le caire, 1940; Combe, le Texte d'Alnwairi Sur L'attaqued, Alexandrie, Par Pierre, I, er, de Lusignan, Bulletin of Faculty of Aets, Vriversity of Alexandria, III, 1974.

أحمد عبد الرازق ، نواب الإسكندرية ، ص ٣ .

(٢٥) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق ، محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين الشيال، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ص ٤٠ ، ٤١ . حامد زيان غانم ، الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٤ ؛ قاسم عبده قاسم ، دراسات ، ص ١٥٢.

(٢٦) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٥٩ ، سعيد عاشور ، العصر المالیكى ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢٧) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢٨) ابن إياس ، بدائع ، جـ ٢ ، ص ٣١ .

(٢٩) المقريزى ، السلوك ، ص ٢ ، ص ٧٧٠ ، ٧٨٥ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص١٢٧ .

(٣٠) النويرى ، بعض منتخبات من كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية ، تعليق ، أ. كومب . مجلة كلية الأداب ، جامعة فاروق الأول ، المجلد الثالث ، ١٩٤٩ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق ، بول ريفز ، باريس ، ١٨٩٤م ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣١) عبد العزيز محمود عبد الدايم ، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك ، مقال فى كتاب مصر وعالم البحر المتوسط ، تقديم . رؤوف عباس ، القاهرة ، ١٩٨٦ ،

ص٢٠٥ . عاطف مرقص بطرس ، قبرص والقوى الصليبية ، دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٩١ ، ص ٢٤٩ .

(٣٢) أشار المقريزى إلى أن المماليك البحرية قاموا بتخريب مدينة دمياط بعد جلاء الفرنج عنها فى سنة ٦٤٨هـ،١٢٥٠م ، خوفًا من عودتهم إليها مرة أخرى ، حيث سيروا إليها الحجارين والفعلة ، حتى خربت كلها ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع ، كما أشار أيضًا أن السلطان الظاهر بيبرس ، بعث فى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ، إليها بعدد من الحجارين لردم بحر دمياط فمضوا وقطعوا كثيرًا من القرابيص وألقوها في نهر النيل عند مصبه حتى ضاق وتعذر دخول المراكب منه إلى دمياط ، انظر ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ، ١٢٧٠هـ ، جـ١ ، ص ٢٩٣ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ، ١٩٦٧ ، ص١٠٥ . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية ، ص ٢٩٧ ؛ تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٨٩ . أحمد عبد الرازق أحمد ، نواب الإسكندرية ، ص ٢ .

(٣٣) جمال الدين الشيال ، الإسكندرية في العصرين الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٩٦، Heyd, W, Histaire du commerce du Levant au mayan age, I, Leipzig, 1925, P. 383.

(٣٤) ابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، رحلة ابن بطوطة ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ١٢ .

(٣٥) ابن شاهين ، زبدة ، ص ٤١ ؛ سعيد عاشور ، المدينة الإسلامية ، ١٩٦٧ ، ص ٢٧ ؛ M.Letters, The pilgramage of Arnold Van Harff, 1446-1499, London (Hakluyt Society), 1946, p. 93-95.

(٣٦) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية ، ص ٧٥ .
M.Letters, The pilgramage, pp. 93-95.

(٣٧) عزيز سوريال ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة ، فيليب صابر يوسف ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٧٣ . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية المصرية ، الإسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ٥١١ .

(٣٨) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٢٨٢ ، ٢٨٣أ .

(٣٩) توفيق إسكندر ، بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، مترجم ، مقال ، الجمعية المصرية التاريخية، العدد ، ٢٧ ، ١٩٦١ ، ص ٣٥ . جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية ، ص ٥١٦ ، ٥١٧ ؛

Fahmy. A, M, Muslem Sea Power in the Eastem Mediterramean. London, 1948, pp. 146.

(٤٠) باركر ، إيرنست ، الحروب الصليبية ، ترجمة ، على أحمد عيسى ، ضمن مجلدات تراث الإسلام ، ١٩٣٦ ، ص ٩٧ ، ٩٨ . نظير حسان ، الحرب والسلام ، زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٥٧ .

(٤١) محمد عبد الفتاح إبراهيم ، قبرص ، لؤلؤة شرق البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤.

(٤٢) أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٩ .

Encyclopoedia of Islam, I, art cypurus, 2 ´ed, p. 883.

(٤٣) جوناثان دايلى سميث ، الاسبتارية ، فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس ، وقبرص ، ترجمة ، صبحى الجابى ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ١٩٧ .

(٤٤) عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ . سعيد عاشور ، قبرص ، ص ٣٨ .

(٤٥) سعيد عاشور ، قبرص ، ص ٥٣ ؛

Atiya, A. S. The Crusades in the Later Middle Ages, London, 1936, p. 322.

(٤٦) Atiya, The Crusades , pp 321- 323.

(٤٧) Machaut, La Prise de L'Alexandria, Geneve, 1877 , pp 21- 47.

(٤٨) Hill, G, AHistory of cyprus, III, Combridge, 1948 , pp 330- 331.

(٤٩) سعيد عاشور ، قبرص ، ص ٥٧ .

(٥٠) Makhiras, L, Recital, II, p. 154.

(٥١) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٣٨٣ أ ؛

Lopez, The Role of Trade in the 7th century, Washington, 1959, p. 76.

(٥٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٤٦ .

(٥٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٤٧ .

(٥٤) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٢٩٥أ .

(٥٥) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٢٩ .

(٥٦) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ١٢أ .

(٥٧) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٨٠-٨٨ب .

(٥٨) ذكر ، صالح بن يحيى ، أن زين الدين خالد ، كان نائبًا للإسكندرية إلا أنه كان واليًا ، حيث إن الإسكندرية لم تتحول إلي النيابة إلا بعد غزوة القبارصة لها وعلى أثرها ، تاريخ بيروت ، ١٩٢٧ ، ص ٣٤ ؛

Abdar-Raiziq, Ahmed, les gouverneurs, pp. 123, 129, 133.

(٥٩) وقع النويرى في نفس الخطأ ، عندما ذكر أن الأمير خليل صلاح الدين بن عرام كان نائبًا للإسكندرية ، إلا أنه كان واليًا ، النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٥٧٥أ ؛

Abdar-Raiziq, Ahmed, les gouverneurs, pp. 123, 129, 133.

(٦٠) لقد أخطأ النويرى مرة أخرى ، عندما ذكر أن خليل صلاح الدين بن عرام كان نائبًا للإسكندرية ونقل عنه ، سعيد عاشور . إلا أن خليل صلاح الدين كان واليًا وليس نائبًا ، النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ٣٠٧ب . سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص١٣١ ؛

Abdar-Raiziq, Ahmed, les gouverneurs, pp. 123, 129.

(٦١) أخطأ النويرى عندما ذكر أن جنغرا كان نائبًا للإسكندرية إلا أنه كان نائبًا عن الوالى الأمير خليل صلاح الدين وليس نائبًا عن السلطان الأشرف شعبان ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٥١٥ب .

(٦٢) امتازت معظم الموانى البحرية في العصور الوسطى بسلاسل ضخمة ، من الحديد تعترض الميناء وتحده من جهة البحر خوفًا من دخول سفن معادية ، والمقصود ببحر السلسلة هنا ميناء الإسكندرية الشرقى ، وكان فى تلك الأزمنة مخصصًا لرسو السفن المسيحية ، سعيد عاشور ، قبرص ، ص ٦٣ ؛

Atiya, The Crusades , pp 353- 354.

(٦٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٤٧ .

(٦٤) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ص ٣١١ .

(٦٥) Makhiras, L, Recital, pp 80. 81.

(٦٦) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقـة ، ٢٩٨ ، ب ؛ وقع ابن إياس في الخطأ الذى سبق أن وقع فيه النويرى ، وصالح بن يحيى ، عندما ذكر « أن نائب الإسكندرية جمع عددًا من عربان البحيرة والتقوا بالفرنج القبرصيين فى معركة حامية ، فانكسر فيها النائب ومن معه وفروا من وجههم » ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٤ ، ٢٥ ؛ ثم نقل عنه عبد المنعم ماجد ، العلاقات ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ إلا أن الواقع أن الأمير جنغرا الذي ذكر أنه كان نائبًا للإسكندرية ، كان نائبًا لوالى الإسكندرية الآمير خليل صلاح الدين بن عرام الذى كان متغيبًا في الحج ولم يكن جنغرا نائبًا عن السلطان الأشرف شعبان ، ذلك أن الإسكندرية لم تتحول من الولاية إلى النيابة إلى على أثر غزوة القبارصة ، Abdar-Raiziq, Ahmed, les gouverneurs, pp. 123, 129, 133.

(٦٧) يلاحظ أن معظم المؤرخين ، أرجعوا سبب هزيمة المسلمين إلى العربان ، فالنويرى يتهكم قائلاً : « إنه لم يكن مع كل منهم سوى سيفه الأجرب » ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ٣١٦ب ؛ وابن أبى حجلة ، وهو أحد المعاصرين ، يقول فى مقامته التى نظمها فى تلك المناسبة « وحضر من العربان كل عريان ، أضر من السوس ، وأشأم من البوم، فكانوا سبب الكسرة وعدم النصرة » . ابن حبيب ، درة الأسلاك في دولة الأتراك ، مخطوط مصور ، بدار الكتب المصرية، جـ١٢ ، تحت رقم ، ١٩٥٧أ ، ورقة ، ١٢ ب .

(٦٨) كان النويرى من ضمن الذين غادروا الإسكندرية ، عندئذ فرارًا بحياته ، وقد خرج من باب بهار ، النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٣٦٧أ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٤٧ .

(٦٩) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٣٠٨ب .

(٧٠) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٣٦٦-٣٦٨ ، ب .

(٧١) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٤٧ .

(٧٢) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، جـ٣ ، ورقة ، ١٣ب ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، جـ١٣ ، ص ٣١٤ .

(٧٣) Machaut, La Prise, pp. 69-98.

(٧٤) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٤٠٥-٤٠٦ ب .

(٧٥) Machaut, La Prise, pp. 101-102.

(٧٦) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، جـ٣ ، ورقة . ١٣ ، ب .

(٧٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٥ ، ص ١٩٥ .

(٧٨) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٣٦٦ ، ب ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٤٧ .

(٧٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٤٧ .

(٨٠) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، جـ٣ ، ورقة ، ١٣ ب .

(٨١) مرثية التستراوى ، ومرثيتين للشاطبى ، النويرى ، جـ١ ، ورقة ، ٧٣٨ب ، ٨٥٧-٥٩٥أ ؛ مرثية ابن أبى حجلة ، ابن حبيب ، درة الأسلاك . جـ٣ ، ورقة ، ١٣ ب .

(٨٢) Machaut, La Prise, pp. 96-110,
Makhiras, L, Recital, pp. 155, Maslatrie, L'ile de Chyprc, Paris, 1865, p. 280.

(٨٣) Makhiras, L, Recital, pp. 157, Maslatrie, L'ile de Chyprc, p. 280.

(٨٤) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ، ٣٠٠ ب .

(٨٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ٢١٤ ؛ سهير محمد إبراهيم ، حملة بطرس الأول على الإسكندرية ، ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص١٠٠ - ١٢١ .

(٨٦) حسن حبشى ، هجوم القبارصة على الإسكندرية ، مقال ، بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ، ١٥ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥ .

(٨٧) النويرى ، الإلمام ، جـ٢ ، ورقة ، ٨١ ، ٨٢ ، ب ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٢٦٨ .

(٨٨) الخالدى ، المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الإنشاء ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، تحت رقم ، ٢٤٠٤٥ ، ورقة ، ١٤٣أ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ، ٢٤ ,٢٦، ٢٧ ,٢٨ ,٦٤ ,٧٦؛ المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ، ١٢٧٠هـ ، جـ٢ ، ص ٣٥٠ .

(٨٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ٩ ، ص٣٠؛ Abdar-Raizig, Ahmed, les gouverneurs, p. 13. ؛ احمد عبد الرازق ، نواب الإسكندرية ، ص ٣ ، ٤ ، ١٤ .

(٩٠) عن هذه الوظيفة ، انظر ، حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، جـ١ ، ص ٣٨٠ ، ٤٠٨ .

(٩١) أجناد الحلقة ، هم إحدي الطوائف الثلاثة الأساسية التى يتألف منها جيش المماليك وهذه الطوائف هى المماليك السلطانية ، ومماليك الأمراء وأجناد الحلقة وهم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم واحترف هؤلاء الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة ومرتباتهم من ديوان الجيش ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، محمود نديم، الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٥ .

(٩٢) عن هذه الوظيفة ، انظر ، حسن الباشا ، الفنون ، جـ٢ ، ص ٩٢٢ ، ٩٢٥ ؛ Wiet,G, etairs de la chancelliric, en Egypte sous les mamlouks Cir-rLess sec cassiens de Rene Basset, Paris, 1927, p. 43.

(٩٣) عن هذه الوظيفة ، انظر ، أحمد عبد الرازق أحمد ، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ١٣ ؛

Abdar-Raiziq, Ahmed, la hisba et la muhtasib en Egypt au temps des Mamluks, Annales Islamooques, XIII, 1977, pp. 115,117.

(٩٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٦٤ ؛ أحمد عبد الرازق ، نواب الإسكندرية ، ص ٥ .

(٩٥) المقصود بدار النيابة ، حسبما ذكر ابن شاهين ، أحد نواب الإسكندرية ، دار السلطان وهى حسب قوله ، دار قديمة كانت موجودة منذ العصر البيزنطى ، وقد جددت أكثر من مرة في العصر الإسلامى ، وكانت مخصصة لنزول السلطان ، إذا أتي لزيارة الإسكندرية ، ولم يسكنها أحد من النواب قبل شاهين الظاهرى الذي وصفها « بأنها عجيبة من عجائب الدنيا ، وبها آدر عظيمة وبها تخت الملك ، وقيل إنه لم تعمر دار وسعها ، أنشأها فى الأصل المقوقس ، ثم بعده جوهر الموتقكى (الصقلى) ، ثم بعده صلاح الدين بن أيوب ثم بعده الملك الناصر فرج بن برقوق ، وبها الأعمدة الرخام الملونة ، والبقاع المفروشة بالرخام الملون ، والأماكن المزخرفة ، والبساتين الحسنة ، ويطول شرح وصفها ، وهى مشرفة على البحر المتوسط ، ولا يسكنها إلا السلاطين خاصة ، ولم تزل إلى الآن (أى فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر

الميلادى) مقفولة ، وقد استأذنت المقام الشريف الملك الأشرف على السكن فيها حين كنت نائب السلطنة بالثغر ، فأمر لى بذلك ، ولم يكن سبق لأحد من نواب الثغر » ، انظر ، ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٤٠ ؛ أحمد عبد الرازق ، نواب الإسكندرية ، ص ٥ .

(٩٦) ورد ذكر نمجاة عند كلام المؤرخين على الألة التى قتل بها السلطان لاجين ، وهي عبارة عن خنجر مقوس ، شبه السيف الصغير ويقال له أيضًا النجمة أو النمجاة وهي معربة للفظ الفارسى تتيمجة ، ويقال أيضًا نمجا ونمشا ونمشاة ونمشة ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٥٨٧، حاشية (١) ، جـ٢ ، ص ٦١٤ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، نشر ، ريترشتين ، لندن ، ١٩١٩ ، ص ٥٠ ؛ ابن إياس ، بدائع ، جـ١ ، ص ١٣٧ ، Dozy, R, Supplement aux dictionmaing arabes, Paris, 1966, p. 233.

(٩٧) هو كاتب السر ، وكان يشرف علي كتاب الدواوين الذين يستتيرون بآرائه ومشورته ، وسمى كذلك لأنه كان يكتم سر السلطان ، وكان يلقب أيضًا بلقب حاجب ديوان الإنشاء أو ناظر الإنشاء الشريف . وكانت وظيفته من أعظم الوظائف الديوانية ، أما الناظر فالمقصود به المشرف على أموال الديوان ، وكان يطلق عليه اسم ناظر الخاص ، وكان يساعده مستوفى الخاص ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية ، ص٨٨ .

(٩٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٤ ، ٦٣ .

(٩٩) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية ، ص ٨٨ .

(١٠٠) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية ، ص ٧٧ ؛ أحمد عبد الرازق ، نواب الإسكندرية ، ص ٦ ؛ Darrage, Ahmed, L'Egypte, p. 194.

(١٠١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٦٤ .

(١٠٢) أحمد عبد الرازق ، نواب الإسكندرية ، ص ٧ .

(١٠٣) جمال الدين الشيال ، تاريخ الإسكندرية ، ص ١٠٧ ، ١١١ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية ، ص ٧٧ ، ٩٧ .

(١٠٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٧٣ .

(١٠٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٩٠ .

(١٠٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٩٢ .

(١٠٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣٥٣ .

(١٠٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣٥٦ .

(١٠٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣٥٩ ؛ لمزيد من التفاصيل ، انظر ، قاسم عبده قاسم، دراسات ، جدول المجاعات والأوبئة ، ص ١٥٣ ، ١٥٧ .

(١١٠) قاسم عبده قاسم ، دراسات ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

(١١١) Lane Poole, S, Ahistory of Egypt, pp. 325-326. ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٥٢ .

(١١٢) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٥٣ .

(١١٣) سعيد عاشور ، قبرص ، ص ٤٦ ؛ على إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٣٩ .

(١١٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ١٧٦, ١٨٠, ١٩٧, ١٩٩, ٢٠٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ٥٤٢, ٥٥٥-٥٥٦, ٥٧١-٥٧٩ ؛ أحمد عبد الكريم سليمان، تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢١ ، ٢٧ .

(١١٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٤٧ .

. Wiet, G, Histoire, pp. 513-518.

(١١٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٢٨ ؛ العينى ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ ، مجلد ، ٢٦ ، ورقة ١٦٩ ، ١٧٠أ .

(١١٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ١٠٣٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ٢٢١؛ De rlignelli, Vita Tamerlani, p. 211, Note, 1, in Oriensvol, 9, 1956.

(١١٨) العينى ، عقد الجمان ، فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم، ١٥٨٤، مجلد ، ٢٧ ، ورقة ، ١٧٤ ، ١٧٥ب ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص٢٢٢ ، ٢٢٣؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٣٢ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٩٧ .

(١١٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٦٠٠ ، ٦٠١ ، أحمد عبد الكريم ، تيمور لنك ، ص ٢١ ، ٢٧ .

(١٢٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٦٠١ ؛ وصف السخاوى السلطان فرج ، «بأنه كان فتاكًا ظالمًا جَبارًا منهمكًا على الخمر واللذات طماعًا فى أموال الرعايا » ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ ، جـ٦ ، ص ١٦٨ .

(١٢١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ؛ أحمد عبد الكريم ، تيمور لنك ، ص ٢٨ .

(١٢٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ٢٢٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ق٣ ، ص١٠٣٧ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٦٠١ ، ٦٢٢ .

(١٢٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٢٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٣، ق٣ ، ص ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ؛ أحمد عبد الكريم ، تيمور لنك ، ص ٣٢ .

(١٢٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ٢٣٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ق٣ ، ص١٠٤٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٦٠٩ .

(١٢٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ٣٧ ، ٢٣٨ ، المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٥١ ؛ العينى ، عقد الجمان ، مجلد ، ٢٧ ، ورقة ، ١٨٤ ، ١٨٥ب .

(١٢٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٤٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٦١٣ ، ٦١٤ ؛

De Mignanelli, Vita, p. 222.

(١٢٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٢ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ق٣ ، ص١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٦١٤ ، ٦١٧ .

(١٢٨) الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان ، تحقيق ، حسن حبشى ، القاهرة، ١٩٧٥ ، جـ٢ ، ص ١٥٩ ؛ أحمد عبد الكريم ، تيمور لنك ، ص ٣٩ .

(١٢٩) أحمد عبد الكريم ، تيمور لنك ، ص ٤١ .

(١٣٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٦ ، ص ١٦٨ .

(١٣١) النويرى ، الإلمام ، جـ٢ ، ورقة ، ٨٢ب ؛ الصيرفى ، نزهة ، جـ٢ ، ص ١٥٩ .

(١٣٢) حياة ناصر الحجى ، أحوال العامة فى حكم المماليك ، الكويت ، ١٩٨٤ ، ص ١٠١ .

(١٣٣) النويرى ، الإلمام ، جـ١ ، ورقة ١٦٨أ ؛

Machiras, Recital, pp 201,203.

(١٣٤) أحمد عبد الرازق ، نواب الإسكندرية ، ص ١٥ ؛
Abdar-Raiziq, Ahmed, les gouverneurs, p. 146.

(١٣٥) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٠١ ، ابن حجر ، أنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٥٤ ؛ الصيرفى ، نزهة ، جـ٢ ، ص ١٨٣ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥، ورقة ، ٤٣٠أ .

(١٣٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٠٢ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ورقة ، ٤٣٠ ، ٤٣١أ ؛ ابن حجر ، أنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٥٥ .

(١٣٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص ٥٦١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص ٣٥٢ .

(١٣٨) Darrage, A, L'Egypte, p. 300.

(١٣٩) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، جـ٣ ، ورقة ، ١٣ب .

(١٤٠) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٢ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص١٢٢ ؛ Wiet, G, le Egypt, pp. 494, 495.

(١٤١) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٦٠٧ .

(١٤٢) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٢٢٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٦٢ ؛
Lone Pool, S, History of Egypt, p. 336.

(١٤٣) محمد أمين صالح ، التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣١ ؛ Machiras, Recital, pp 215-219.

(١٤٤) Machiras, Recital,1, pp 157, 158.

(١٤٥) النويرى ، الإلمام ، جـ٢ ، ورقة ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ب .

(١٤٦) Atiya, The Crusades , p 375.

(١٤٧) Darrage, A, Le' Egypte, p. 300.

(١٤٨) يطلق علي تجار التوابل ، تجار الكارم ، انظر ، محمد عبد الغنى الأشقر ، تجار التوابل في مصر فى العصر المملوكى ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ، ١٢٧ ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص١٩ ، ٢١ .

(١٤٩) حامد زيان ، الأزمات الاقتصادية ، ص ٤٤ ، جمال جرجس يوسف ، الاحتكار فى الدولة المملوكية الثانية ، دكتوراه ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٥ ، ص١٥٦ .

(١٥٠) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٦٠٧ .

(١٥١) المتجر السلطانى ، هو النشاط الذى تقوم به الدولة ، ولقد كان أحد وسائل علاج الأزمة المالية ، وبعد أن كان يتعامل مع الأسواق شأنه شأن أى تاجر ، انفرد بتجارة التوابل ، ومنع تداول هذه التوابل إلا عن طريقه حيث إنه احتكر بيعها ، وكان على المتجر تمويل الدولة ، وهكذا وظفته الدولة بخدمة الدواوين المكلفة بسداد كلف السلطنة ، ابن حجر ، أنباء الغمر، جـ٣ ، ص٤٢٣ ، إبراهيم على طرخان ، دولة المماليك الچراكسة ، ص ٢٧٧ .

(١٥٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢١ ، ورقة ، ٤٥٣أ ؛ جمال جرجس ، الاحتكار ، ص ١٦٣ .

(١٥٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ ، ٤٦٥ .

(١٥٤) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٤٥٦ ؛ جـ٤ ، ص ٣٠ ؛ جـ١١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(١٥٥) ابن حجر ، أنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ٦٢ ؛ حسن حبشى ، الاحتكار المملوكى ، مقال ، من حوليات كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، المجلد ، ٩ ، ٨٩٦٤ ، ص ١٤٠ .

(١٥٦) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ١ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(١٥٧) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٤٦٠ .

(١٥٨) صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ، مجلد ، ١٤ ، ١٩٥٢ ، ص ٤٢ ؛

Darrage, A, Le' Egypt, p. 226.

(١٥٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص ٣٧١ ، ٣٨٢ ؛ الجزيرى ، الدرر الفرايد فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، نشر ، حمد الجاسر ، الرياض ، ١٩٨٣ ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ ؛ نعيم زكى، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ١٩٨٠ ، ص ٢٩٤ .

(١٦٠) الجزيرى ، الدرر الفرايد ، ص٢٩٢، ٢٩٣ ؛ فتحية عبد الفتاح النبراوى ، مصر وحماية البحر الأحمر ، مقال فى كتاب الصراع بين العرب والاستعمار ، القاهرة ١٩٩٤، ص١٥٤، ١٥٥ .

(١٦١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص٣٨٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٦ ، ص٦٢٨ .

(١٦٢) عادت قافلة المحمل فى المحرم سنة ٨٢٨هـ / نوفمبر ١٤٢٤م ، متأخرة يومين بسبب شراء توابل السلطان ، ابن حجر ، أنباء الغمر ، جـ٢ ، ص٣٨٥ ؛

. Darrage, L' Egypte, p.231

(١٦٣) الصيرفى ، نزهة ، جـ٢ ، ص٢٧١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص١٩٧ .

(١٦٤) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص٣٧٧ .

(١٦٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص٤٦٨ .

(١٦٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص٣٩٠ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص٤٦٨ ؛ الصيرفى ، نزهة ، جـ٢، ص٢٦٠ ؛ Ashtore, E, Spice prices in The Nea-reast in the 15th Century (JRAS), 1976, p.31 .

(١٦٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص٣٩٠ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص٤٦٨ ؛ الصيرفى ، نزهة ، جـ٢، ص٢٦٠ .

(١٦٨) السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، نشر ، أحمد زكى ، القاهرة ، ١٨٩٦م ، ص١٧٥، ١٧٦ ؛ صبحى لبيب ، التجارة الكارمية ، ص١٣ .

(١٦٩) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص٥١٥ ؛ الصيرفى ، نزهة ، جـ٢، ص٢٨٥ ؛

(١٧٠) الصيرفى ، نزهة ، جـ٢، ٣٠٦ ؛ عزيز سوريال ، العلاقات، ص١٨٨ .

(١٧١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص٦١٤ .

(١٧٢) البيومى إسماعيل الشربينى ، مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية ، عصر سلاطين المماليك ، جـ٢ ، القاهرة ، ١٩٩٧، ص٩٧ .

(١٧٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص٤٧٢ ؛ جمال جرجس ، الاحتكار ، ص١٧٧ .

(١٧٤) حسين مصطفى حسين ، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى مصر الإسلامية ، دكتوراه ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٨، ص١٨٦ .

(١٧٥) على محمد عمر ، ديوان الخاص السلطانى فى مصر زمن الناصر محمد بن قلاوون ، مجلة التاريخ والمستقبل ، مجلد ٢ ، آداب المنيا ، ١٩٨٨ ص ١٣٠ .

(١٧٦) أحمد بن على الدلجى ، الفلاكة والمفلكون ، تحقيق ، خليل صادق ، مصر ، ١٣٢٢هـ، جـ٢ ، ص٥٣ .

(١٧٧) ابن دقماق ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، القاهرة ١٨٩٣ ، جـ٤ . ص ٣٧-٤٠ .

(١٧٨) محمد الأشقر ، التوابل ، ص ٤٤٨ .

(١٧٩) السخاوى ، الضوء جـ٢ ، رقم ١٩٧ ، ص٥١ .

(١٨٠) الصيرفى ، نزهة ، جـ٣، ص٢٤٦ .

(١٨١) مما يؤيد شدة احتياج برسباى للمال بسبب حملاته على قبرص ، أنه أرسل ، عددًا من المماليك يحملون هدية إلى عبد الله بن أحمد ملك اليمن فى أوائل سنة ٨١٩هـ / ١٤٢٦م ، ورسالة يطلب فيها أن يساهم فى توفير بعض المال لحملات الجهاد ضد قبرص ، غير أن ملك اليمن لم يرسل له شيئًا ، بل إنه لم يحترم الرسل وطردهم ، فغضب برسباى وأصر على فتح قبرص ، وتوفير المال بأية وسيلة ، فكان احتكاره للتوابل ، سعيد عاشور ، التدهور الاقتصادى ، ص ٦٥-٨٧ ؛ محمد عبد الفتاح ، قبرص ص٢٩٤ .

(١٨٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٦٠٧ ؛ حامدل زيدان ، الأزمات الاقتصادية ، ص٤٤ ؛ جمال جرجس ، الاحتكار ، ص١٥٦ ؛ محمد الأشقر ، تجار التوابل ، ص٤٣٩-٤٥١ .

(١٨٣) إبراهيم طرخان ، دولة المماليك ، ص ٩٦ .

(١٨٤) إبراهيم طرخان ، دولة المماليك ، ص ٩٧ ؛ وليم موير ، دولة المماليك فى مصر ، القاهرة ، ١٩٦٠، ص٥٦، ١٠٩، ١١٧ .

(١٨٥) Atiya , The Crisade , p. 47. ؛ ناجلا محمد عبد النبى ، القرصنة اللاتينية فى شرق حوض البحر المتوسط علي عصر سلاطين المماليك ، مقال ، مجلة المؤرخ العربى ، المجلد الأول ، العدد التاسع ، مارس / ٢٠٠١م ، ص٥٥ - ٦٨ .

(١٨٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٥ ، ص١٩٥ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٤ ، ق١ ، ورقة ١٣٩.

(١٨٧) النويرى ، الإلمام ، جـ ١ ، ورقة ، ٥٩٦ ، أ .

(١٨٨) النويرى ، الإلمام ، جـ ١ ، ورقة ، ٥٩٦ ، أ .

(١٨٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص٦٣ .

(١٩٠) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٤ ، ورقة ، ١٣٩ ب .

(١٩١) النويرى ، الإلمام ، جـ ١ ، ورقة ، ٩٧-٣ . ١ أ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٥ ، ص ١٩٥ .

(١٩٢) سعيد عاشور ، قبرص ، ص ٨٨ .

(١٩٣) Ziada , The Mamluk Conquest of cyprus , Part , Paris , 1935 , pp. 90-91.

(١٩٤) Atiya, The crusade, p. 471 .

(١٩٥) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ، ١٧٥٢ أ .

(١٩٦) Lane Pool, S, Egypt, p. 337.

(١٩٧) Makhiaros, Recital. pp. 623-629.

(١٩٨) السيوطى ، غزوات قبرص ورودس ، جزء من كتاب السيوطى ، المسمى بتاريخ الأشرف قيتباى المحمودى ، فينا ، ١٨٨٤م / ص٢ ؛ ابن شاهين ، زبدة ، ص١٣٨ .

(١٩٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٧٨ .

(٢٠٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٧٨، ٥٧٩ .

(٢٠١) الصيرفى ، نزهة ، جـ٢ ، ص٢٢٨ ؛
Wiet, G, L' Egypte, p. 554, Darraqe, L' Egypte. p. 231 .

(٢٠٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦، ص٥٨٠ .

(٢٠٣) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٠ .

(٢٠٤) ابن شاهين ، زبدة، ص١٣٨ ؛ ويلاحظ أن هذا يختلف عما رواه المقريزى ، وابن تغرى بردى، من أن المسلمين قصدوا أولاً فاما جوستا ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٣ ؛ النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٢ .

(٢٠٥) ابن شاهين ، زبدة ، ص١٣٨ ؛ على حسن الخربوطلى ، البحر المتوسط ، بحيرة عربية ، سلسلة اقرأ ، رقم ٢٤٧ ، دار المعارف ، ب/ت ، ص٤٧ .

(٢٠٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٢ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٣ .

(٢٠٧) ابن شاهين ، زبدة، ص١٣٨ .

(٢٠٨) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص٣٦٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٢ .

(٢٠٩) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٠ ؛ ابن شاهين ، زبدة ، ص١٣٨ .

(٢١٠) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٢ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ص٥٧٢ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٠ .

(٢١١) Makhiaras, Recital, p. 633.

(٢١٢) حدد المقريزى وابن تغرى بردى ، عدد الأسرى بثلاثة وعشرين أسيرًا ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٣ ؛ النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٠ ؛ أما ابن حجر ، فقد حددهم بألف ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص١٠٦ ؛ والسيوطى ، بألف وسبعمائة ، غزوات قبرص ، ص٢ ،

ولا شـك أن التقـديريين الأخيـريين مبالغ فيهـا لأن كل السـفن الإسـلامية كانت خمسـة .

(٢١٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٢ .

(٢١٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٢أ .

(٢١٥) Makhiaras, Recital, p. 631.

(٢١٦) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٢أ .

(٢١٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٢ .

(٢١٨) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ص٥٧٢ .

(٢١٩) Wiet, G, L' Egypte, p. 555.

(٢٢٠) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٧ Makhiaras, Recital, p. 633.

(٢٢١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٨ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦؛ Hill, G, AHistory of cyprus, II, p. 47.

(٢٢٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٨ .

(٢٢٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٨٨ .

(٢٢٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٣ ب ، ابن تغـرى بردى ، النجـوم ، جـ٦، ص ٥٨٨.

(٢٢٥) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٦ .

(٢٢٦) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢٢٧) Makhiaras, Recital, p. 633.

(٢٢٨) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢٢٩) Makhiaras, Recital, pp. 633-635.

(٢٣٠) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ ؛ ابن شاهين ، زبدة، ص١٣٩ .

(٢٣١) ابن شاهين ، زبدة، ص١٣٩ .

(٢٣٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢٣٣) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢٣٤) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢١ .

(٢٣٥) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٢ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ ؛ العينى، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٣ب .

(٢٣٦) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٢ ؛ ابن شاهين ، زبدة ، ص١٤٠ ؛ المقريزى ، السلوك، جـ٤ ، ص ٣٦٨ .

(٢٣٧) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٢ب .

(٢٣٨) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ ؛ ابن شاهين ، زبدة، ص١٤٠ .

(٢٣٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩١ .

(٢٤٠) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٢ ؛ المقريزى ، السلوك، جـ٤ ، ص ٣٦٨ .

(٢٤١) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

(٢٤٢) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٢ ؛ المقريزى ، السلوك، جـ٤ ، ص ٣٦٨ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ص٥٧٤ ، ب .

(٢٤٣) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٢ ؛ ذكر العينى ، إنها إحدى عشرة سفينة ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ص٥٧٤ ، ب .

(٢٤٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩١ .

(٢٤٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢٤٦) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٣ .

(٢٤٧) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٣ .

(٢٤٨) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٤ .

(٢٤٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٢ .

(٢٥٠) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١٠٦ ؛ ابن شاهين ، زبدة، ص١٤١ .

(٢٥١) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٤ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص١٠٦ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٥أ .

(٢٥٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٥أ ؛ ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٤١ .

(٢٥٣) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٤ .

(٢٥٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٥ ، ٥٧٦ ؛ ابن شاهين ، زبدة ، ص١٤١ .

(٢٥٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٢ .

(٢٥٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٢ .

(٢٥٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٢ .

(٢٥٨) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٥٢٤ ؛ الباف ، تعريب بافوس ، فى جنوب غرب قبرص، سعيد عاشور ، قبرص ، ص ١٠١ .

(٢٥٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٨ .

(٢٦٠) الطينة ، بلدة بين تنيس والفرما ، بالوجه البحرى، سعيد عاشور ، قبرص ، ص١٠١.

(٢٦١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٠ .

(٢٦٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٣ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٦أ .

(٢٦٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٣ ؛.

(٢٦٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٣ .

(٢٦٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٤ .

(٢٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٣ .

(٢٦٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٤ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٧ ، ب .

(٢٦٨) النويرى ، الإلمام ، جـ ١ ، ورقة ، ٣٦٧أ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص١٠٦ .

(٢٦٩) النويرى ، الإلمام ، جـ ١ ، ورقة ، ٣٦٦ب .

(٢٧٠) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٦٩ .

(٢٧١) النويرى ، الإلمام ، جـ ١ ، ورقة ، ٣٢٣أ .

(٢٧٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٢ .

(٢٧٣) النويرى ، الإلمام ، جـ ١ ، ورقة ، ٥١٦ .

(٢٧٤) Ziada, The Mamluk Conquest of cyprus the Fifteenth century. Bulletin of the Faculty Arts, Cairo, 1, p. 99..

(٢٧٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

Hill, G, AHistory of cyprus, II, p. 475.

(٢٧٦) Ziada, The Mamluk Conquest ,p. 99.

(٢٧٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٥٩٩ .

(٢٧٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٦ ، ٦٠٧ .

Darrage, L'Egypte, pp. 249, 250.

(٢٧٩) Makhiaras, Recital, p. 639.

(٢٨٠) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٢٨١) يلاحظ أن السفن التى صنعت بالشام ، أحضرت إلى مصر ، ومنها توجهت إلى قبرص مباشرة ، بخلاف ما حدث فى الحملتين السابقتين من مرور السفن المصرية على بلاد الشام ، لتأخذ معها السفن الشامية ، صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٦ .

(٢٨٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٠ ، أنور زقلمة ، المماليك فى مصر ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ٧ ، ٧٩ .

(٢٨٣) السيوطى ، غزوات قبرص ، ص ٦ .

(٢٨٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٨ب .

(٢٨٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠١ .

(٢٨٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٢ .

(٢٨٧) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٨ .

(٢٨٨) النويرى ، الإلمام ، جـ ١ ، ورقة ، ٣٢٣أ .

(٢٨٩) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص٢٢٧ ، المقريزى ، السلوك، جـ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٢٩٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٢ .

(٢٩١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٥ ، ق٣، ورقة ٥٧٨ ، ٥٧٩ .

(٢٩٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ ، المقريزى ، السلوك، جـ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٢٩٣) Makhiaras, Recital, p. 653.

(٢٩٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٧٩ أ.

(٢٩٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة٥٧٩أ.

(٢٩٦) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٢٩٧) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٠ .

(٢٩٨) المقريزى ، السلوك، جـ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٢٩٩) Makhiaras, Recital, p. 655.

(٣٠٠) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٠ب .

(٣٠١) المقريزى ، السلوك، جـ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٣٠٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٣٠٣) Makhiaras, Recital, p. 655.

(٣٠٤) Makhiaras, Recital, p. 655-657..

(٣٠٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ ؛ ابن شاهين ، زبدة، ص١٤٢ .

(٣٠٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٥ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨١ب .

(٣٠٧) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨١أ .

(٣٠٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٥ .

(٣٠٩) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٣١٠) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨١ب .

(٣١١) Makhiaras, Recital, p. 661.

(٣١٢) Makhiaras, Recital, p. 663.

(٣١٣) Makhiaras, Recital, p. 661.

(٣١٤) Makhiaras, Recital, pp. 661-663..

(٣١٥) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٧ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨١ب .

(٣١٦) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٣١٧) Makhiaras, Recital, p. 663.

(٣١٨) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨١ب .

(٣١٩) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٣٢٠) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨١ب .

(٣٢١) هذه الرواية يرويها مكاريوس Makhiaros, Recital, p. 665 كما رواها ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ ؛ كذلك ذكرها السيوطى الذى أخذها عن ابن حجر ، غزوات ، ص٩ .

(٣٢٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٧ ؛ يذكر ابن شاهين ، أن المسلمين أودعوا جانوس بعد ذلك بمراكبهم ، زبدة ، ص١٤٣ .

(٣٢٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٧ .

(٣٢٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ ؛ ابن شاهين ، زبدة، ص١٤٣ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨١ب .

(٣٢٥) Makhiaras, Recital, p. 663.

(٣٢٦) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٣٢٧) ابن شاهين ، زبدة ، ص١٢٣ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ص٥٨١ .

(٣٢٨) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٣٢٩) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٢ ، ورقة٥٨٢أ .

(٣٣٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٧ .

(٣٣١) Makhiaras, Recital, p. 767.

(٣٣٢) هذا ما ذكره العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٢أ ؛ أما المقريزى ، وابن تغرى بردى ، فقد قدرا السفن القبرصية بأربع وعشرين سفينة ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٣٧٤ ؛ النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٧ .

(٣٣٣) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة٥٨٢ ، أ .

(٣٣٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٢ ، ٥٨٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٧ ، ٦٠٨ .

(٣٣٥) Makhiaras, Recital, p. 664.

(٣٣٦) Makhiaras, Recital, p. 669.

(٣٣٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٤ .

(٣٣٨) Makhiaras, Recital, p. 667.

(٢٣٩) تردد المسلمون أول الأمر قبل دخول نيقوسيا ، ويرجع مكاريوس ذلك التردد إلى أن عظمة المدينة قد أخذتهم فوقفوا أمامها مذهولين ،

Makhiaras, Recital, p. 671.

أما ابن حجر ، فيرجع ذلك إلى قلة عددهم ، ويبدو أن هذا الرأى الأخير أقرب إلى الصواب ، لأن عدد المماليك الذين دخلوا نيقوسيا لم يتجاوز الستين ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ .

(٢٤٠) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ .

(٢٤١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٣ .

(٢٤٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٣ ب .

(٢٤٣) Makhiaras, Recital, p. 671.

(٢٤٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٣ ب .

(٢٤٥) Makhiaras, Recital, p. 671.

(٢٤٦) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة٥٨٣ ،ب.

(٢٤٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٨ .

(٢٤٨) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ .

(٢٤٩) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢٥٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠١ .

(٢٥١) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٢٧٥ .

(٢٥٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٣ ، ٥٨٤ .

(٢٥٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٠٩ .

(٢٥٤) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٢٧٥ .

(٢٥٥) ومنها القصيدة التى نظمها الشاعر ابن الخراط ، وأنشدها بين يدى السلطان بحضرة الأمراء ورجال الدولة ، وهى من ثلاثة وسبعين بيتًا مطلعها :

بشراك يا ملك الملوك الأشرف   بفتوح قبرص بالحسام المشرفى

ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص ٦٠٩ ، ٦١٠ .

(٢٥٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١١ .

(٢٥٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٢٧٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١١ .

(٣٥٨) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ .

(٣٥٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٢ .

(٣٦٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٢ ، ٦١٣ .

(٣٦١) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٤ ، أ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٢ ، ٦١٤ .

(٣٦٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ .

(٣٦٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٤ .

(٣٦٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٤أ ، هذا يختلف عما ذكره ابن تغرى بردى ، من أن الغنائم عرضت أولاً على السلطان ، ثم الأسرى بعد ذلك ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٤ .

(٣٦٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٤ ؛ Lane Pool, S, Egypt, p. 337.

(٣٦٦) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٤ ، أ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ .

(٣٦٧) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ص٥٨٥ .

(٣٦٨) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٦ .

(٣٦٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٦ .

(٣٧٠) تواتر في بعض المصادر العربية ، أن جانوس حين مثل بين يدى السلطان ولمس تشدده معه فى أمر الفدية ، أنشد أمامه الأبيات الآتية :

يا ملكًا ملك الورى بحسامه	انظر إلى برحمة وتعطف
وارحم عزيزاً ذل وافتن بالذى	أعطاك هذا الملك والنصر الوفى
إن لم تؤمنونى وترحموا غربتى	فبمن الوذ ومن سواكم لى يفى
فالله ينصركم ويخلد ملككم	ويديم نصركم ليوم الموقف

يقول ابن شاهين ، أن جانوس قال هذه الأبيات بنفسه ، زبدة ، ص ١٤٤ ؛ ولما كان ابن تغرى بردى قد جالس جانوس ، وقال ، إنه لا يعرف العربية فإنه من الصعب تصديق ابن شاهين ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٦ ، ٦٢٠ ؛ والغالب كما يقول ابن حجر ، أن جانوس كان ينظم الشعر بلغته ويعربه الترجمان ، إنباء الغمر ،

جـ٢ ، ص١١٢ ، ويقول السيوطى ، إن الذي وضع الأبيات السابقة لجانوس ، المؤرخ ابن حجر ، غزوات قبرص ، ص١٢ .

(٣٧١) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ .

(٣٧٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٧ .

(٣٧٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٧ .

(٣٧٤) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ ؛ كان شرط برسباى ، الأول أن يعتنق جانوس الإسلام ويدفع مليون دوكات أو يعدم ؛

Alastras, D, Cyprais in History, London, 1955, pp. 204, 205.

(٣٧٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦١٧ ؛

Hill, G, AHistory of cyprus, II, p. 488.

(٣٧٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٧٥ ؛ يبدو أن الاتفاق كان على أن تلك الجزية السنوية تدفع عينًا ، لا نقدًا ، إذ إن ابن حجر ، يقول ، إنه تقرر علي جانوس « ألف ثوب صوف ملونة قيمتها حوالى عشرين ألف دينارًا ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ .

(٣٧٧) Ziada, The Mamluk Conquest , II, pp. 39, 40, Hill, G, AHistory of cyprus, II, p. 488.

(٣٧٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٢٠ ؛

Wiet, G, AHistory of cyprus, II, pp. 555,558.

(٣٧٩) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٣ ، ورقة ٥٨٥ أ.

(٣٨٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٢٠ .

(٣٨١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٢ ؛ ١١٣ ؛ إبراهيم طرخان ، دولة المماليك الچراكسة، القاهرة ، ١٩٦٥، ص١٠٥ ؛ أحمد عبد الرازق أحمد ، نواب الإسكندرية، ص١٨ ، رقم (١٨) ؛

Abdar-Raiziq, Ahmed, les gouverneurs, p. 147, No. 67.

(٣٨٢) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٢٢٩ ؛ عزيز سوريال ، العلاقات ، ص ٩٣ .

Makhiaras, Recital, p. 673.

(٣٨٣) Makhiaras, Recital, p. 673; Lone Pool, S, History of Egypt, p. 340.

(٢٨٤) النويرى ، الإلمام ، جـ ٢ ، ورقـة ، ١٠٢أ ؛ قـاسم عـبـده قـاسم ، عـصـر سـلاطين المماليك، ص٤٩ .

(٢٨٥) Makhiaras, Recital, p. 673.

(٢٨٦) ذكـر المقـريزى فى أكـثـر من مـوضـوع ، « أحلت هذه السنة وسلطان مـصـر والشـام والحجاز وقبرص ، الملك الأشـرف أبو الفرج برسباى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٤١، ٤١٥، ٤٣٤ .

(٢٨٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٢٨٤ .

(٢٨٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٨٢٦ .

(٢٨٩) هذا يؤكـد صـحـة قـول المقـريزى من أن الجـزية كـانت تدفع عـينًا ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣٩٠ .

(٢٩٠) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٣١٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٧٩ .

(٢٩١) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٤١١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٨٠ .

(٢٩٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص٦٨٢ .

(٢٩٣) Makhiaras, Recital, p. 683.

(٢٩٤) سعيد عـاشـور ، قبـرص ، ص١١٤ ، ١١٥ ؛ فـهـرس الآثار الإسـلامـيـة ، القـاهرة ، ١٩٥١، رقم الأثر ، ١٧٥ ، رقم ، ١/٤ ز .

(٢٩٥) سعيد عاشور ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ١٩٦٤ ، ص٦٤ .

(٢٩٦) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص١٧٠ .

(٢٩٧) سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص١٠٣ .

■ ● ■ ● ■

ثبت المصادر والمراجع

- المصادر العربية :

- المخطوطات :

- ابن حبيب ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، مخطوطات بدار الكتب ، رقم ، ٦١٧٠ .

- الخالدى ، كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادى إلى صناعة الإنشاء ، مخطوط ، بجامعة القاهرة ، رقم ، ٢٤٤٥ .

- العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ، ١٥٨٤ .

- النويرى السكندرى ، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ، ٤٤٩ت .

- المصادر المطبوعة :

- ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، بولاق ، ٨٩٣هـ-١٨٩٥م ، طبعه ، بوكالة ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

- ابن أيبك الدوادارى ، الدرر الفاخر فى سير الملك الناصر ، تحقيق ، هانس روبرت رويمير ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩م .

- ابن حبيب ، تذكرة التنبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ١-٣ ، تحقيق ، محمد محمد أمين ، القاهرة ، ١٩٧٦ - ١٩٨٦ .

- ابن حجر ، أنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق ، حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٩ - ١٩٧٢م .

- ابن دقمان ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، القاهرة ، ١٨٩٣م .

- ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق ، بول ريفز ، باريس ، ١٨٩٤م .

- ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ، ١٩٣٩م .
- الجزيرى ، الدرر الفرايد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، نشر ، حمد الجاس ، الرياض ، ١٩٨٣ .
- السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة ، ١٨٩٦م .
- السيوطى ، غزوات قبرص ورودس ، جزء من كتاب السيوطى ، المسمى بتاريخ الأشرف قايتباى المحمودى ، فينا ، ١٨٨٤م .
- الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، تحقيق ، بريارة ، شيفرفيسباون ، ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م .
- صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ١٩٢٧م .
- الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان ، تحقيق ، حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧١م .
- القلقشندى ، صبح الأعشى ، فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ، ١٤١٣هـ .
- المقريزى ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، نشر ، مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٨م ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر ، مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٤٠م ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ، ١٢٧٠هـ .
- النويرى ، منتخبات من الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية ، تعليق ، أ. كومب ، مقال بمجلة كلية الأداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ، ٣ ، ١٩٤٦م .

- المراجع العربية :

- إبراهيم حسن سعيد ، البحرية في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
- إبراهيم على طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- أحمد عبد الرازق أحمد ، نواب الإسكندرية فى كتاب الضوء اللامع ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد(١) ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

- أحمد محمد عدوان ، الوضع الاقتصادى في مصر في عهد الدولة المملوكية الأولى، دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٢م .
- أحمد عبد الكريم سليمان ، تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، ١٩٨٥م.
- ألف ليلة وليلة ، بيروت ، ب/ت .
- أنور زقلمة ، المماليك في مصر ، القاهرة ، ١٩٣٠م .
- البيومى إسماعيل الشربينى ، مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية ، عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
- جمال جرجس يوسف ، الاحتكار فى الدولة المملوكية الثانية ، ماجستير ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٥ .
- جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ، ١٩٦٧م .
- حامد زيان غانم ، الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
- حسن حبشى ، هجوم القبارصة على الإسكندرية ، مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ، مجلد ، ١٥ ، ١٩٦٩م .
- حسين مصطفى حسين ، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى مصر الإسلامية ، دكتوراه ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٨م .
- حياة ناصر الحجى ، أحوال العامة فى حكم المماليك ، الكويت ، ١٩٨٤م .
- سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧م ،

العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- سهير محمد إبراهيم ، حملة بطرس الأول على الإسكندرية ، ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٨م .
- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها ، الإسكندرية ، ١٩٦٦م .
- صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ، مجلد ، ١٤ ، ١٩٥٢م .

- عبد العزيز محمود عبد الدايم ، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة ، مقال ، فى كتاب مصر وعالم البحر المتوسط ، تقديم ، رؤوف عباس ، القاهرة ، ١٩٨٦م ،
- فن القتال البحرى فى عصر سلاطين المماليك ، دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤م .
- عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
- عثمان محمد عبد الحميد ، الأسطول والبحرية في عصر سلاطين المماليك ، ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٠ .
- عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة ، فيليب صابر يوسف ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
- على إبراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
- قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
- محمد أمين صالح ، التنظيمات الحكومية لتجارة مصر في عصر المماليك الجراكسة ، دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٠م .
- محمد مصطفى زيادة ، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، مقال ، بمجلة الجيش ، القاهرة ، ١٩٤٦ .
- محمد رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، القاهرة ، ١٩٤٦ - ١٩٦٩م .
- وليم ميور ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة ، محمود عابدين ، القاهرة ، ١٩٢٤م .
- ناجلا محمد عبد النبى ، القرصنة اللاتينية فى شرق حوض البحر المتوسط على عصر سلاطين المماليك ، مقال ، بمجلة المؤرخ العربى ، جامعة القاهرة ، المجلد الأول ، العدد التاسع ، مارس ، ٢٠٠١م .
- نعيم فهمى زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، ١٩٦٨م .
- نظير حسان سعداوى ، صور ومظالم من عصر المماليك ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

- المراجع الأجنبية :

- Abd ar - Reziq Ahmed , Les governours d' Alexandria au temps des Mamluks , Annales , Islamologiques , XVIII , le Caire , 1928 , pp. 123 - 169 .
- Alastras, D, Cyprais in History, London, 1955.
- Ashtor, E, «Spice Prices in the Near East in the 15th century». (JRAS), 1976, pp. 158-144.
- Darrage , A , L' Egypt Sous le regne de Barasbay , Damas , 1961.
- Encyclopaedia of Islam, II.
- Harold Lamb, The Crusades, The Flam of Islam, London, 1931.
- Hill, G, AHistory of Cyprus, II, III, Combridge, 1948.
- Lane Pool, S, Egypt in the Middle Ages, London 1901.
- Makhiaras, L, Recital concering the sweet land of cyprus Edit, by RM Dawkins, I, II, Oxford, 1922.
- Roliok, A.N, Le Caractere coloniol de l'etot Mamlouk, dans ses rapports avec La Horde d'or, REI, annee, 1953.
- Wiet, G, Le' Egypte arabe, History de la nation. ´egyptienne, Paris, 1937.
- Ziada, The Mamluk Conquest of Cyprus in the Fifteenth, Bulletin of the Faculty of Arts, I, Cairo.

■●■●■





7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043